تأمــلات شيــــــــخ الاسلام ابــن تيمــية

في

الـقــرآن الـكــريــــم

" سورة يس"
(٣٦)

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

الفهرس (٢)

§§~يس(مكية)٨٣~§§

يس ١-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

{يس{١} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{٢} إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{٣} عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٤} تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ{٥} لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{٦} لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{٧} إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ{٨} وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{٩} وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠} إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ{١١} لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{٧} إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ{٨} وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{٩} وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠} إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ{١١}

فواتح السور

قال تعالى{ يس{١} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{٢}يس ١-٢ ليس فى القرآن من حروف الهجاء التى هي أسماء الحروف إلا نصفها وهى أربعة عشر حرفا وهى نصف أجناس الحروف نصف المجهورة والمهموسة والمستعلية والمطبقة والشديدة والرخوة وغير ذلك من أجناس الحروف وهو أشرف النصفين والنصف الآخر لا يوجد فى القرآن إلا فى ضمن الأسماء أو الأفعال أوحروف المعانى التى ليست باسم ولا فعل فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة فى القرآن لكن نفس حروف المعجم التى هي أبعاض الكلام موجودة فى القرآن بل قد اجتمعت فى آيتين إحدهما فى آل عمران والثانية فى سورة الفتح {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً }آل عمران١٥٤الآية و{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ}الفتح٢٩ الآية [1]

[1]- مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٤٨-٤٤٩

أن المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور يروى هذا عن إبن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الإسمية و الفعلية و انما هي أسماء موقوفة و لهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد و التركيب و إنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث و لهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها في النطق أسماء و لهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاى من زيد قالوا زا قال نطقتم بالإسم و إنما النطق بالحرف زه فهي فى اللفظ أسماء و فى الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبى صلى الله عليه و سلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم حرف و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و الح لغة الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسما و فعلا و حرفا و لهذا قال سيبويه فى تقسيم الكلام إسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الإسم حرف و الفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل و هذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام و أما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد و ينطق بها غير معربة و لا يقال فيها معرب و لا مبنى لأن ذلك إنما يقال في المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم ثم يقال هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا و هي المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى و هذا المطلوب وأيضا فإن الله تعالى قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }آل عمران٧و هذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء و إنما يعدها آيات الكوفيون و سبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابه و لكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء [1]

ذكر نعمته سبحانه فى هذه الآيات

قال تعالى { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً{٨٨}الاسراء ٨٨ فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدرون على معارضة القرآن بمثله فعجز لفظه ومعناه ومعارفه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأنا والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم مع قوة عداوتهم وحرصهم على إبطال أمره بكل طريق وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله وأنزل الله إذ ذاك آيات بين فيها أنه رسول إليهم ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم فقال تعالى {يس{١} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{٢} إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{٣} عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٤} تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ{٥} لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{٦}يس ١-٦ ذكر تعالى في هذه الآيات نعمته على هؤلاء وحجته عليهم بإرساله وذكر بعض حكمته في إرساله وذلك لا يقتضي أنه لم يرسل إلا لهذا بل مثل هذا كثير معروف في لسان العرب وغيرهم [2]

---

[1]- مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٤٢٠-٤٢١ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤١١ و مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٠٣

[2] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٢٧

القرآن منزل من الله سبحانه وتعالى

قال تعالى {يس{١} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{٢} إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{٣} عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٤} تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ{٥} لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{٦}يس ١-٦ ونفاة الصفات يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء لوجهين أحدهما أن الإنزال إنما يكون من علو و الله تعالى عندهم ليس فى العلو فلم ينزل منه شيء و قد قال تعالى {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}الأنعام١١٤ {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }الأحقاف٢ إلى غير ذلك و قولهم أنه خلقه فى مخلوق و نزل منه باطل لأنه قال { أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ }الأنعام١١٤ و لم يجيء هذا فى غير القرآن و الحديد ذكر أنه أنزله مطلقا و لم يقل منه و هو منزل من الجبال و المطر أنزل من السماء و المراد أنه أنزله من السحاب و هو المزن كما ذكر ذلك فى قوله {أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ }الواقعة٦٩ و الثانى أنه لو كان من مخلوق لكان صفة له و كلاما له فإن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل و لأن الله لا يتصف بالمخلوقات و لو إتصف بذلك لاتصف بأنه مصوت إذا خلق الأصوات و متحرك إذا خلق الحر كات فى غيره إلى غير ذلك إلى أن قال فقد تبين أن الجهمية ما قدروا الله حق قدره وأنهم داخلون فى هذه الآية و أنهم لم يثبتوا قدرته لا على فعل و لا على الكلام بمشيئته و لا على نزوله و على إنزاله منه شيئا فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدرة الله و أنه إلى كل شيء قدير و إذا لم يكن قديرا لم يكن قويا و يلزمهم أنه لم يخلق شيئا فيلزمهم الدخول فى قوله ضعف الطالب و المطلوب ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز فهم ينفون حقيقة قدرته فى الأزل و حقيقة قولهم أنه صار قادرا بعد أن لم يكن و القدرة التى يثبتونها لاحقيقة لها وهذا أصل مهم من تصوره عرف حقيقه الأقوال الباطلة و ما يلزمها من اللوازم وعرف الحق الذى دل عليه صحيح المنقول و صريح المعقول لاسيما فى هذه الأصول التى هي أصول كل الأصول والضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول و قد تبين أنه كلما تحققت الحقائق و أعطى النظر و الإستدلال حقه من التمام كان ما دل عليه القرآن هو الحق و هو الموافق للمعقول الصريح الذي لم يشتبه بغيره مما يسمى معقولا و هو مشتبه مختلط كما قال مجاهد فى قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً }الأنعام١٥٩ قال هم أهل البدع و الشبهات فهم فى أمور مبتدعة فى الشرع مشتبهة في العقل والصواب هو ما كان موافقا للشرع مبينا في العقل فإن الله سبحانه أخبر أن القرآن منزل منه و أنه تنزيل منه و أنه كلامه و أنه قوله و أنه كفر من قال أنه قول البشر و أخبر أنه قول رسول كريم من الملائكة و رسول كريم من البشر و الرسول يتضمن المرسل فبين أن كلا من الرسولين بلغه لم يحدث هو منه شيئا و أخبر أنه جعله قرآنا عربيا[١]

ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٢٦- ٢٨

قال تعالى{ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}يس ٦ ومعلوم أنه لم يبعث لمجرد الإنذار بل وليبشر من آمن به ولأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث وغير ذلك من مقاصد الرسل وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله قال تعالى{ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}يس ٦ فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم[1]

قال تعالى{ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}يس ٦ يقتضي أنه لم ينذر الأميين وليس فيه أنه لا ينذر غيرهم فإن قيل فقد سكت عن ما سوى الأميين في هذا فيشعر بالنفي بدليل الخطاب الذي يسمى مفهوم المخالفة قيل ذاك إنما يدل إذا لم يكن في التخصيص فائدة سوى الاختصاص بالحكم ولم يكن هنا تصريح بأن حكم المسكوت كحكم المنطوق[2]

الكافر ما دام كافرا لا يقبل الحق

قال تعالى{ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}يس ٦ قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة٦ فإن للناس فى هذه الآية قولين أحدهما أنها خاصة بمن يموت كافرا وهذا منقول عن مقاتل كما قال في قوله {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ }الكافرون١ و كذلك نقل عن الضحاك قالا نزلت فى مشركى العرب كأبي جهل و أبى طالب و أبي لهب ممن لم يسلم و قال الضحاك نزلت في أبى جهل و خمسة من أهل بيته و طائفة من المفسرين لم يذكروا غير هذا القول كالثعلبى و البغوي و ابن الجوزي قال البغوى هذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة فى سابق علم الله و قال ابن الجوزي قال شيخنا على بن عبيدالله و هذه الآية وردت بلفظ العموم و المراد بها الخصوص لأنها آذنت بأن الكفار حين إنذارهم لا يؤمنون و قد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم و لو كانت على ظاهرها فى العموم لكان خبر الله بخلاف مخبره فلذلك و جب نقلها إلى الخصوص و القول الثانى أن الآية على مقتضاها و المراد بها أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى الكافر ما دام كافرا لا ينفعه الإنذار و لا يؤثر فيه كما قيل مثل ذلك فى الآيات إنها غير موجبة للإيمان و قد جمع بينهما فى قوله { وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ }يونس١٠١ فالآيات أفقية و أرضية و قرآنية و هي أدلة العلم و الإنذار يقتضى الخوف فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل به ن فهذا تنفعه الحكمة و الإنذر لمن يعرف الحق و له هوي يصده فينذر بالعذاب الذي يدعوه إلى مخالفة هواه و هو خوف العذاب و هذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة و آخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل فيجادل بالتى هي أحسن و قد قال تعالى {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ

---

[1] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٣٢

[2] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٥٢-١٥٣

}الأنعام١١١ و قال {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات٤٥ {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ
الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس١١ فالمراد أن الكافر ما دام كافرا لا يقبل الحق سواء انذر أم لم ينذر و لا
يؤمن ما دام كذلك لأن على قلبه و سمعه و بصره موانع تصد عن الفهم و القبول و هكذا حال من
غلب عليه هواه و هو سبحانه لم يقل أنهم لا يؤمنون و قيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة أو
حقت عليه الكلمة كقوله {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ {٩٦} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ
حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{٩٧}يونس٩٦ -٩٧ فبين أن هؤلاء لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم
وقت رؤية العذاب الأليم كإيمان فرعون المذكور قبلها و موسى قد دعا عليه فقال { رَبَّنَا اطْمِسْ
عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ {٨٨} قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا
{٨٩}يونس٨٨ -٨٩ و أما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ
وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ }الأنعام١١١ الآية
فبين أنهم قد يؤمنوا إذا شاء و آية البقرة مطلقة عامة فإنه ذكر فى أول السورة أربع آيات فى
صفة المؤمنين و آيتين فى صفة الكافرين و بضع عشرة آية في المنافقين فبين حال الكافر المصر
على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التى على قلبه و سمعه و بصره و ليس قال إن الله لا يهدى أحدا
من هؤلاء فيسمع و يقبل و لكن هو حين يكون كافرا لا تتناوله الآية و هذا كما يقال فى الكافر الحربى
لا يجوز أن تعقد له الذمة و لا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربيا فالكفار ما داموا كفارا
هم بهذه المثابة لهم موانع تمنعهم من الإيمان كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك و إن
أنذروا و هذا كقوله {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ
فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }البقرة١٧١ فهذا مثل كل كافر ما دام كافرا وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون
إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم و سمعهم و ابصارهم فإنهم لا يسمعون لذلك المعنى المشتق منه
و هو الكفر فما داموا هذه حالهم فهم كذلك و لكن تغير الحال ممكن كما قال { إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ
}الأنعام١١١ و كما هو الواقع و مثل هذا يفيد أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه و إنذاره و بيانه
يحصل الهدى و لو كان أكمل الناس و أن الداعى و إن كان صالحا ناصحا مخلصا فقد لا يستجيب
المدعو لا لنقص فى الدعاء لكن لفساد فى المدعو و هذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل
الفاعل و قبول القابل كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه لا يقطع الحجارة و الحديد و نحو
ذلك و النفخ يؤثر إذ كان هناك قابل لا يؤثر في الرماد و الدعاء و التعليم و الإرشاد و كل ما كان
من هذا الجنس له فاعل و هو المتكلم بالعلم و الهدى و النذارة و له قابل و هو المستمع فإذا كان
المستمع قابلا حصل الإنذار التام و التعليم التام و الهدى التام و إن لم يكن قابلا قيل علمته فلم يتعلم و
هديته فلم يهتد و خاطبته فلم يصغ و نحو ذلك فقوله في القرآن {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة٢ هو من
هذا إنما يهتدي من يقبل الإهتداء و هم المتقون لا كل أحد و ليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم
بل قد يكونوا كفارا لكن إنما يهتدى به من كان متقيا فمن إتقى الله إهتدى بالقرآن و العلم و الإنذار إنما
يكون بما أمر به القرآن و هكذا قوله {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً }يس٧٠ الإنذار التام فإن الحي يقبله
و لهذا قال { وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ }يس٧٠ فهم لم يقبلوا الإنذار و مثله قوله {إِنَّمَا
أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات٤٥ و عكسه قوله {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ }البقرة٢٦ أي
كل من ضل به فهو فاسق فهو ذم لمن يضل به فإنه فاسق ليس أنه كان فاسقا قبل ذلك و لهذا
تأولها سعد بن أبى و قاص في الخوارج و سماهم فاسقين لأنهم ضلوا بالقرآن فمن ضل
بالقرآن فهو فاسق فقوله{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ }البقرة٦ من هذا الباب و التقدير من ختم على قلبه و
جعل على سمعه و بصره غشاوة فسواء عليك أنذرته أم لم تنذره هو لا يؤمن أي ما دم كذلك و لكن
هذا قد يزول و فى صفة النبى صلى الله عليه و سلم { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً

}الأحزاب٤٥ و حرزا للأميين أنت عبدي و رسولي سميتك المتوكل لست بفظ و لا غليظ و لا سخاب في الأسواق و لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو و يغفر و لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعينا عميا و آذانا صما و قلوبا غلفا و قد قال {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ {٦} لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{٧}يس٦-٧ فدل على أن بعضهم يؤمنون ثم قال { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً }يس٨ إلى قوله{ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ} يس١١ فهذا هو الإنذار التام و هو الإنذار الذي يقبله المنذر و ينتفع به و قوله {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } يس١٠ هو أصل الإنذار كما يقال فى البليد و المشغول الذهن بأمور الدنيا و الشهوات سواء عليك أعلمته أم لم تعلمه لا يتعلم و لا يقبل الهدى و يقال فى الذكى الفارغ إنما يتعلم مثل هذا ثم المشغول قد يتفرغ و قد يصلح ذهن بعد فساده و يفسد بعد صلاحه لفساد قلبه و صلاحه و على هذا القول أكثر تفسير السلف كما ذكره ابن إسحاق و قد رواه ابن أبى حاتم و غيره قال ابن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ }البقرة٦ أي بما أنزل إليك و إن قالوا إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة٦ أي إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك و جحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فقد كفروا بما جاءك و بما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذارا و تحذيرا فقد تبين أنهم لا يسمعون الإنذار لكفرهم بما عندهم و ما جاءهم من الحق و معلوم ان منهم خلقا تابوا بعد ذلك و آمنوا و روى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال آيتان فى قادة الأحزاب {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة٦ قال هم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ }إبراهيم٢٨ قلت جعلهم قادة الأحزاب لكونهم أضلوا الأتباع فأحلوهم دار البوار و الأحزاب يوم الخندق قد أسلم عامة قادتها و حسن إسلامهم مثل عكرمة بن أبى جهل و صفوان بن أمية و سهيل بن عمرو و أبى سفيان و هؤلاء أسلم منهم من أسلم عام الفتح و هم الطلقاء و منهم من أسلم قبل ذلك و الحزب الآخر غطفان و قد أسلموا أيضا والآية لابد أن تتناول كفار أهل الكتاب كما قال ابن إسحق فإن السورة مدنية و إن تناولت مع ذلك المشركين فهي تعم كل كافر و مقاتل و الضحاك يخصها ببعض مشركي العرب و ابن السائب يقول هي إنما نزلت فى اليهود منهم حيي بن أخطب و كذلك ما ذكره ابن إسحق عن ابن عباس أنها فى اليهود و أبو العالية يقول إنها نزلت في قادة الأحزاب و الآية تعم هؤلاء كلهم و غيرهم كما أن آيات المؤمنين و المنافقين كان سبب نزولها المؤمنين و المنافقين الموجودين و قت النزول و هي تعمهم و غيرهم من المؤمنين و المنافقين إلى قيام الساعة و المقصود أن قوله { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة٦ كقوله {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ {٥٢} وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ {٥٣}الروم٥٢ -٥٣ و قوله { أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ {٤٢} وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ{٤٣}يونس٤٢ -٤٣ و كل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك و تبليغك و حرصك على هداهم ليس موجب ذلك و إنما يحصل ذلك إذا شاء الله هداهم فشرح صدورهم للإسلام كما قال تعالى {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل٣٧ ففيه تعزية لرسوله صلى الله عليه و سلم و بينت الآية له أن تبليغك و إن لم يهتدوا به ففيه مصالح عظيمة غير ذلك و فيه بيان أن الهدى هدى الله { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }الكهف١٧ و قد قال له {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ }القصص٥٦ ففيه تقرير التوحيد و تقرير مقصود الرسالة و هو سبحانه أخبر عمن لا يؤمن فقال {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ{٩٦} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ

{٩٧}يونس٩٦ و قال {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ }يس٦ ثم قال {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }يس٧ فخص في هذه الآية و فى تلك {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ }يونس٩٦ و هم الذين حق عليهم القول أي حق عليهم ما قاله الله سبحانه و كتبه و قدره فجعل الموجب هو التقدير السابق و هو قوله و القول و إن كان قد يكون خبرا مجردا بما سيكون و قد يكون قولا يتضمن أشياء كاليمين المتضمنة للحض و المنع فقد ذكر فى مواضع تقدم اليمين كقوله {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }السجدة١٣ و نحو ذلك فهو خبر عما قاله أو قاله و كتبه و هو التقدير الذي يتضمن أنه قدر ما يفعله و علمه و كتبه كما تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و القدر تضمن علمه بما سيكون و مشيئته لوجود ما قدره و علم أن سيخلقه و القول قد يكون خبرا و قد يكون فيه معنى الطلب الحض و المنع بالقسم و إما لكتابته على نفسه كقوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ }الأنعام٥٤ و قوله { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }الروم٤٧ و قوله يا عبادي إنى حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم محرما فلا تظالموا و أما قوله { وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ }الزمر٧١ فهذا مختص بالكفار و هو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال كما قال تعالى لإبليس {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص٨٥ و قوله {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى }طه١٢٩ أي إن عذابهم له أجل مسمى إما يوم القيامة و إما فى الدنيا كيوم بدر و إما عقب الموت و قد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة فلولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب لزاما أي لازما لهم فإن المقتضي له قائم تام وهو كفرهم و أما إذا أطلق القول على الكفار من غير تقييد فإنه لا يريد من لا يؤمن منهم فإن اللفظ لا يدل على ذلك ألبتة و أيضا فإن هذا لا فائدة فيه إذ كان أولئك غير معروفين و إنما هم طائفة قد حق عليهم القول و هم لا يتميزون من غيرهم بل هو مأمور بإنذار الجميع و فيهم من يؤمن و من لا يؤمن فذكر اللفظ العام و إرادة أولئك دون غيرهم ليس فيه بيان للمراد الخاص و ذكر المعنى الذي أوجب أنهم لا يؤمنون قط و لا فيه تعليق الحكم بالمعنى العام و كلام الله تعالى يصان عن مثل ذلك و ما ذكر من الموانع هي موجودة فى كل من لم يقبل الإنذار سواء كان كافرا أو منافقا و فاسقا أو غير ذلك لسبب يوجب ذلك فيمتنع قبول الإنذار بسبب الموانع لكن هذه الموانع قد تزول فإنها ليست لازمة لكل كافر و إذا كان المانع ما سبق من القول الذي حق عليهم فقد لا يزول أبدا كما قال {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ {٩٦} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{٩٧}يونس٩٦-٩٧ و قد يذكر هذا و هذا و أما إذا اقتصر على ذكر الموانع التى فيهم و لم يذكر ما سبق من القول فهذه الموانع يرجى زوالها و يمكن ما لم يذكر معها ما يقتضي إمتناع تغير حالهم و حصول الهدى[1]

لم يكن قط عند العرب توراة ولا إنجيل عربيان

قال تعالى{ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}يس ٦ والعرب أقرب الأمم إلى بني إسحاق بني إسرائيل والعيص فإنهم بنو إسماعيل وجيرانهم فإن أهل الحجاز جيران الشام ومكة لم تزل تحج إليها العرب ولم يكن قط عند العرب توراة ولا إنجيل عربيان من عهد المسيح عليه السلام بل ولا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٨٤-٥٩٥

كان بمكة لا توراة ولا إنجيل لا معرب ولا غير معرب ولهذا قال تعالى {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ }يس٦[1]

أفعال العباد حادثة بمشيئة الله وقدرته

قال تعالى{ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ{٨} وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{٩} يس٨ -٩ وجمهور أهل السنة يقولون إن العبد فاعل لفعله حقيقة لا مجازا وإنما نازع في ذلك طائفة من متكلمة أهل الاثبات كالأشعري ومن اتبعه والقرآن مملوء بما يدل على أن أفعال العباد حادثة بمشيئة الله وقدرته وخلقه فيجب الإيمان بكل ما في القرآن ولا يجوز أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض[2]

الإستطاعة المنفية هنا ليست هي الإستطاعة المشروطة فى الأمر والنهي

أن الإستطاعة جاءت فى كتاب الله على نوعين الإستطاعة المشترطة للفعل و هي مناط الأمر و النهي كقوله تعالى { وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً }آل عمران٩٧ و قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }التغابن١٦ و قوله {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ }النساء٢٥ الآية {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً}المجادلة٤ و قوله { وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ }البقرة١٨٤ و قول النبى صلى الله عليه و سلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب فإن الإستطاعة فى هذه النصوص لو كانت لا توجد إلا مع الفعل لوجب ألا يجب الحج إلا على من حج و لا يجب صيام شهرين إلا على من صام و لا القيام في الصلاة إلا على من قام و كان المعنى على الذين يصومون الشهر طعام مسكين و الآ ية إنما أنزلت لما كانوا مخيرين بين الصيام و الإطعام فى شهر رمضان و الإستطاعة التى يكون معها الفعل قد يقال هي المقترنة بالفعل الموجبة له و هي النوع الثاني و قد ذكروا فيها قوله تعالى {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }الكهف١٠١ و قوله تعالى { يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ }هود٢٠ و نحو ذلك قوله { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ{٨} وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{٩} يس٨ -٩ فإن الإستطاعة المنفية هنا سواء كان نفيها خبرا أو إبتداء ليست هي الإستطاعة المشروطة فى الأمر و النهي فإن تلك إذا إنتفت إنتفى الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و الحمد و الذم و الثواب و العقاب و معلوم أن هؤلاء فى هذه الحال مأمورون منهيون موعودون متوعدون فعلم أن المنفية هنا ليست المشروطة فى الأمر و النهي المذكورة في قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }التغابن١٦ لكن قد يقال الإستطاعة هنا كالإستطاعة المنفية فى قول الخضر لموسى

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٨٢

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٥٩

{ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً }الكهف٦٧ فإن هذه الإستطاعة المنفية لو كان المراد بها مجرد المقارنة فى الفاعل و التارك لم يكن فرق بين هؤلاء المذمومين و بين المؤمنين و لا بين الخضر و موسى فإن كل أحد فعل أو لم يفعل لا تكون المقارنة موجودة قبل فعله و القرآن يدل على أن هذه الإستطاعة إنما نفيت عن التارك لا عن الفاعل فعلم أنها مضادة لما يقوم بالعبد من الموانع التى تصد قلبه عن إرادة الفعل و عمله و بكل حال فهذه الإستطاعة منتفية فى حق من كتب عليه أنه لا يفعل بل و قضى عليه بذلك وإذا عرف هذا التقسيم أن إطلاق القول بأن العبد لا يستطيع غير ما فعل و لا يستطيع خلاف المعلوم المقدر و إطلاق القول بأن إستطاعة الفاعل و التارك سواء و أن الفاعل لايختص عن التارك بإستطاعة خاصة عرف أن كلا الإطلاقين خطأ و بدعة و لهذا إتفق سلف الأمة و أئمتها و جمهور طوائف أهل الكلام على أن الله قادر على ما علم و أخبر أنه لا يكون و على ما يمتنع صدوره عنه لعدم إرادته لالعدم قدرته عليه[1]

التصديق الذي فى القلب يقتضى عمل القلب

قال تعالى{ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ{٨} وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{٩} يس٨ -٩ فالتصديق الذي فى القلب وعلمه يقتضي عمل القلب كما يقتضي الحس الحركة الإرادية لأن النفس فيها قوتان قوة الشعور بالملائم والمنافى والإحساس بذلك والعمل والتصديق به وقوة الحب للملائم والبغض للمنافى والحركة عن الحس بالخوف والرجاء والموالاة والمعاداة وإدراك الملائم يوجب اللذة والفرح والسرور وإدراك المنافى يوجب الألم والغم وقد قال النبى كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقا به ودينا له لكن يعرض لها ما يفسدها ومعرفة الحق تقتضي محبته ومعرفة الباطل تقتضي بغضه لما فى الفطرة من حب الحق وبغض الباطل لكن قد يعرض لها ما يفسدها إما من الشبهات التى تصدها عن التصديق بالحق وإما من الشهوات التي تصدها عن اتباعه ولهذا أمرنا الله أن نقول فى الصلاة {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة ٦-٧ وقال النبى صلى الله عليه وسلم اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون لأن اليهود يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ولا يتبعونه لما فيهم من الكبر والحسد الذي يوجب بغض الحق ومعاداته والنصاري لهم عبادة وفى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية إبتدعوها لكن بلا علم فهم ضلال هؤلاء لهم معرفة بلا قصد صحيح وهؤلاء لهم قصد فى الخير بلا معرفة له وينضم إلى ذلك الظن وإتباع الهوى فلا يبقى فى الحقيقة معرفة نافعة ولا قصد نافع بل يكون كما قال تعالى عن مشركي أهل الكتاب {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وقال تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }الأعراف١٧٩ فالإيمان فى القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٢٩٠- ٢٩١

عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى بل لابد فى أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب[١]

{إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }

قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر٢٨ والمعنى انه لا يخشاه الا عالم فقد اخبر الله ان كل من خشى الله فهو عالم كما قال فى الآية الأخرى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }الزمر٩ والخشية أبدا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطا كما ان الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا فأهل الخوف لله والرجاء له هم اهل العلم الذين مدحهم الله وقد روى عن أبى حيان التيمى انه قال العلماء ثلاثة فعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله وعالم بالله عالم بأمر الله فالعالم بالله هو الذى يخافه والعالم بأمر الله هو الذى يعلم امره ونهيه وفى الصحيح عن النبى انه قال والله انى لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده واذا كان اهل الخشية هم العلماء الممدوحون فى الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ويدل عليه قوله تعالى }وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّـكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ{١٣} وَلَنُسْكِنَنَّـكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ{١٤}إبراهيم١٣-١٤ وقوله {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ }الرحمن٤٦ فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف وذلك إنما يكون لأنهم ادوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ولهذا يقال للفاجر لا يخاف الله ويدل على هذا المعنى قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ }النساء١٧ قال أبو العالية سألت اصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وكذلك قال سائر المفسرين قال مجاهد كل عاص فهو جاهل حين معصيته وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم انما سموا جهالا لمعاصيهم لا انهم غير مميزين وقال الزجاج ليس معنى الآية انهم يجهلون انه سوء لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءا وانما يحتمل امرين احدهما انهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه والثانى انهم اقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة وآثروا العاجل على الآجل فسموا جهالا لايثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل واما فساد الارادة وقد يقال هما متلازمان وهذا مبسوط فى الكلام مع الجهمية والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله وانما يكون جاهلا لنقص خوفه من الله إذ لو تم خوفه من الله لم يعص ومنه قول ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه وتصور المحبوب يوجب طلبه فاذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على انه لم يتصوره تصورا تاما ولكن قد يتصور الخبر عنه وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه وكذلك اذا لم يكن المتصور محبوبا له ولا مكروها فان الانسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ولا يورثه ذلك هربا ولا طلبا وكذلك اذا اخبر بما

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٢٨

هو محبوب له ومكروه ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه لكن قلبه مشغول بأمور اخرى عن تصور ما أخبر به فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب وفى الكلام المعروف عن الحسن البصرى ويروى مرسلا عن النبى العلم علمان فعلم فى القلب وعلم على اللسان فعلم القلب هو العلم النافع وعلم اللسان حجة الله على عبادة وقد أخرجا فى الصحيحين عن ابى موسى عن النبى انه قال مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولاريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها وهذا المنافق الذى يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه وقد يصدق انه كلام الله وان الرسول حق ولايكون مؤمنا كما ان اليهود يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وليسوا مؤمنين وكذلك ابليس وفرعون وغيرهما لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة فان ذلك يستلزم العمل بموجبه لامحالة ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه أنه جاهل كما تقدم وكذلك لفظ العقل وان كان هو فى الأصل مصدر عقل يعقل عقلا وكثير من النظار جعله من جنس العلوم فلابد ان يعتبر مع ذلك انه علم يعمل بموجبه فلا يسمى عاقلا من عرف الخير فطلبه والشر فتركه ولهذا قال اصحاب النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وقال عن المنافقين { تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ }الحشر١٤ ومن فعل ما يعلم انه يضره فمثل هذا ماله عقل فكما ان الخوف من الله يستلزم العلم به فالعلم به يستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه وهذا هو الذى قصدنا بيانه اولا ويدل على ذلك ايضا قوله تعالى { فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{٩} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{١٠} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{١١} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{١٢} الاعلى ٩-١٢ فأخبر ان من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال الله تعالى {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ }غافر١٣ وقال {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ }ق٨ ولهذا قالوا فى قوله {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى١٠ سيتعظ بالقرآن من يخشى الله وفى قوله { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ }غافر١٣ انما يتعظ من يرجع الى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره فان تذكر محبوبا طلبه وان تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }يس١٠ وقال سبحانه {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس١١ فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله { وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }يس١٠ فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان الانذار هو الاعلام بالمخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذى تم تخويفه واما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة٢ ومن هديته فلم يهتد كما قال {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت١٧ فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع فالمؤثر التام يستلزم اثره فمتى لم يحصل اثره لم يكن تاما والفعل اذا صادف محلا قابلا تم والا لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ويقال الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم الفساد الفطرة و الفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالممرور الذى يجد العسل مرا فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ {١٠٩} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{١١٠}الأنعام١٠٩ وقال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }الصف٥ وقال { وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ }النساء١٥٥ وقال فى الآية الأخرى {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ }البقرة٨٨ و الغلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذى فى غلاف مثل الأقلف كأنهم جعلوا المانع خلقة أى خلقت القلوب وعليها أغطية فقال الله تعالى { بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ }البقرة٨٨ و {طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء١٥٥ وقال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ }محمد١٦ وكذلك قالوا {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ }هود٩١ قال {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ }الأنفال٢٣ أى لأفهمهم ما سمعوه ثم قال ولو أفهمهم مع هذه الحال التى هم عليها { لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ }الأنفال٢٣ فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ولو فهموا لم يعملوا فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }الفرقان٤٤ وقال {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }الأعراف١٧٩ وقال {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }البقرة١٧١ وقال عن المنافقين {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ }البقرة١٨ ومن الناس من يقول لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق جعلوا صما بكما عمليا أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق صاروا كالصم العمي البكم وليس كذلك بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }الحج٤٦ والقلب هو الملك والأعضاء جنوده واذا صلح صلح سائر الجسد واذا فسد فسد سائر الجسد فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم والمعنى لا يفقهه وان فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما فان الفقه التام يستلزم تأثيره فى القلب محبة المحبوب وبغض المكروه فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلا[1]

الأمر ليس به أمرا بما يعجزون عنه

قال تعالى { وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{١٠} إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ{١١} يس١٠ -١١ و الذين زعموا و قوع التكليف بالممتنع لذاته كالرازي و غيره إحتجوا بإن الله كلف أبا لهب بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن و إخباره بإنه لايؤمن فكلفه بالجمع بين النقيضين بأن يفعل الشيء و بأن يصدق أنه لا يكون مصدقا بذلك و هو صادق فى تصديقه إذا لم يكن و إحتجوا بأنه كلف خلاف المعلوم و خلاف المعلوم محال فيكون حقيقة التكليف أنه يجعل علم الله جهلا و هذا ممتنع لذاته و هؤلاء جعلوا لفظ مالا يطاق لفظا عاما يدخل فيه كل فعل لكون القدرة عندهم لا تكون إلا مع الفعل و يدخل فيه خلاف المعلوم و يدخل فيه المعجوز عنه و يدخل فيه الممتنع لذاته ثم ذكروا نحو عشر حجج يستدلون بها على جواز هذا الجنس فإذا فصل الأمر عليهم ثبت أن دعواهم جواز ما لايطاق للعجز عنه سواء كان ممتنعا لذاته أو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:٢١- ٢٧

ممكنا باطلة لادليل عليها و أما جواز تكليف ما يقدر العبد عليه من العبادة و يقولون هم أنه لا يكون قادرا عليه إلا حين الفعل فهذا مما إتفق الناس على جواز التكليف به لكن ثم نزاع لفظي و معنوى فى كونه يدخل فيما لا يطاق فصار ما أدخلوه فى هذا الأسم أنواعا مختلفة منها ما ينازعون في جوازه أو و قوعه و منها ما ينازعون فى إسمه و صفته لا فى وقوعه أما تكليف أبى لهب و غيره بالإيمان فهذا حق و هو إذا أمر أن يصدق الرسول فى كل ما يقوله و أخبر مع ذلك أنه لا يصدقه بل يموت كافرا لم يكن هذا متناقضا و لا هو مأمور أن يجمع بين النقيضين فإنه مأمور بتصديق الرسول فى كل ما بلغ و هذا التصديق لا يصدر منه فإذا قيل له أمرناك بأمر و نحن نعلم أنك لا تفعله لم يكن هذا تكليفا للجمع بين النقيضين فإن قال تصديقكم في كل ما تقولون يقتضى أن أكون مؤمنا إذا صدقتكم و إذا صدقتكم لم أكن مؤمنا لأنكم أخبرتم أنى لا أؤمن بكل ما أخبر به قيل له لو وقع منك لم يكن فيه هذا الخبر ولم يكن يخبر أنك لا تؤمن فأنت قادر على تصديقنا وبتقدير وجوده لا يحصل هذا الخبر وإنما وقع لأنك أنت لم تفعل ما قدرت عليه من تصديقنا بهذا الخبر فوقع بعد تكذيبك وتركك ما كنت قادرا عليه لم نقل لك حين أمرناك بالتصديق العام وأنت قادر عليه ولو قيل لك آمن ونحن نعلم أنك لا تؤمن بهذا الخبر فالذي أمرت أن تؤمن به هو الإخبار بأن محمدا رسول الله وهذا أنت قادر عليه ولا تفعله و إذا صدقتنا فى خبرنا أنك لا تؤمن لم يكن هنا تناقض لكن لايمكن الجمع بين الإيمان والتصديق فإنه لم يقع و نحن لم نأمرك بهذا بل أمرناك بإيمان مطلق تقدر عليه وأخبرنا مع ذلك أنك لا تفعل ذلك المقدور عليه و لم نقل لك صدقنا فى هذا وهذا فى حال واحدة لكن الواجب عليك هو التصديق المطلق و التصديق بهذا لايجب عليك حينئذ و لو وقع منك التصديق المطلق إمتنع منا هذا الخبر بل هذا الخبر إنما و قع لما علمنا أنه لايقع منك التصديق المطلق

وهذا كله لو قدر أن أبا لهب أسمع هذه الآية وأمر بالتصديق بها وليس الأمر كذلك لكن لما أنزل الله قوله {سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ } المسد٣ لم يسلم لهم أن الله أمر نبيه بإسماع هذا الخطاب لأبي لهب و أمر أبا لهب بتصديقه بل لا يقدر أحد أن ينقل أن النبى صلى عليه و سلم أمر أبالهب أن يصدق بنزول هذه السورة فقوله أنه أمر أن يصدق بأنه لايؤمن قول باطل لم ينقله أحد من علماء المسلمين فنقله عن النبى صلى الله عليه وسلم قول بلا علم بل كذب عليه فإن قيل فقد كان الإيمان واجبا على أبي لهب ومن الإيمان أن يؤمن بهذا قيل له لانسلم أنه بعد نزول هذه السورة وجب على الرسول أن يبلغه إياها بل ولا غيرها بل حقت عليه كلمة العذاب كما حقت على قوم نوح إذ قيل له { أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } هود٣٦ و بعد ذلك لا يبقى الرسول مأمور بتبليغهم الرسالة فإنه قد بلغهم فكفروا حتى حقت عليهم كلمة العذاب باعيانهم وقد يخبر الله الرسول عن معين أنه لا يؤمن لكن لا يأمره أن يعلمه بذلك بل هو مأمور بتبليغه و إن كان الرسول يعلم أنه لايؤمن كالذين قال الله فيهم {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ {٩٦} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{٩٧} يونس٩٦ -٩٧ و قوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة٦ فهؤلاء قد يعلم بعض الملائكة وبعض البشر من الأنبياء وغيرهم فى معين منهم أنه لايؤمن وإن كانوا مأمورين بتبليغه أمر الله ونهيه وليس فى ذلك تكليفه بالجمع بين النقيضين وذلك خلاف المعلوم فإن الله يفعل ما يشاء بقدرته وما لايشاء يعلم أنه لا يفعله وأنه قادر عليه لو شاء لفعله وعلمه أنه لا يفعله لايمنع أن يكون قادرا عليه و العباد الذين علم الله أنهم يطيعونه بإرادتهم و مشيئتهم و قدرتهم وإن كان خالقا لذلك فخلقه لذلك أبلغ فى علمه به قبل أن يكون كما قال تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك١٤ و ما لم يفعلوه فما أمرهم به يعلم أنه لا يكون لعدم إرادتهم له لا لعدم قدرتهم عليه و ليس الأمر به أمرا بما يعجزون عنه بل هو أمر بما لو أرادوه لقدروا على فعله لكنهم لا يفعلونه لعدم إرادتهم له و جهم ومن وافقه

من المعتزلة إشتركوا فى أن مشيئة الله ومحبته ورضاه بمعنى واحد ثم قالت المعتزلة و هو لا يحب الكفر والفسوق والعصيان فلا يشاؤه فقالوا إنه يكون بلا مشيئة وقالت الجهمية بل هو يشاء ذلك فهو يحبه و يرضاه وأبو الحسن وأكثر أصحابه وافقوا هؤلاء فذكر أبو المعالي الجويني أن أبا الحسن أول من خالف السلف فى هذه المسألة ولم يفرق بين المشيئة والمحبة والرضا وأما سلف الأمة وأئمتها و أكابر أهل الفقه والحديث والتصوف وكثير من طوائف النظار كالكلابية والكرامية وغيرهم فيفرقون بين هذا وهذا ويقولون أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ويرضى به كما لا يأمر ولا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان ولا يحبه كما لا يأمر به وإن كان قد شاءه و لهذا كان حملة الشريعة من الخلف و السلف متفقين على أنه لو حلف ليفعلن واجبا أو مستحبا كقضاء دين يضيق وقته أو عبادة يضيق وقتها و قال إن شاء الله ثم لم يفعله لم يحنث وهذا يبطل قول القدرية و لو قال إن كان الله يحب ذلك و يرضاه فإنه يحنث كما لو قال إن كان يندب الى ذلك و يرغب فيه أو يأمر به أمر إيجاب أو إستحباب وهذا يرد على الجهمية ومن إتبعهم كأبى الحسن الأشعري و من و افقه من المتأخرين وبسط هذه الأمور له موضع آخر والمقصود هنا جواب هذه المسألة فإن هذه الإشكالات المذكورة إنما ترد على قول جهم ومن وافقه من المتأخرين من أصحاب أبى الحسن الأشعري وغيرهم وطائفة من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأما أئمة اصحاب مالك والشافعى وأحمد وعامة اصحاب ابى حنفية فانهم لا يقولون بقول هؤلاء بل يقولون بما اتفق عليه السلف من انه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ويثبتون الفرق بين مشيئته وبين محبته ورضاه فيقولون ان الكفر والفسوق والعصيان وان وقع بمئشئتة فهو لا يحبه ولا يرضاه بل يسخطه ويبغضه ويقولون ارادة الله فى كتابه نوعان نوع بمعنى المشيئة لما خلق كقوله {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء}الأنعام١٢٥ ونوع بمعنى محبته ورضاه لما امر به وإن لم يخلقه كقوله { يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }البقرة١٨٥ مايريد الله ليجعل علكيم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته علكيم لعلكم تشكرون {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {٢٦} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{٢٧} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{٢٨}النساء٢٦-٢٨ وبهذا يفصل النزاع في مسألة الامر هل هو مستلزم للارادة ام لا فان القدرية تزعم انه مستلزم للمشيئة فيكون قد شاء المأمور به ولم يكن والجهمية قالوا انه غير مستلزم لشيء من الإرادة لا لحبه له ولا رضاه به الا اذا وقع فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكذلك عندهم ما احبه ورضيه كان وما يحبه لم يرضه لم يكن وتأولوا قوله { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ }الزمر٧ على ان المراد ممن لم يقع منه الكفر او لا يرضاه دينا كما يقولون لم يشاه ممن لم يقع منه او لا يشاءه دينا اذا كانوا موافقين للجهمية والقدرية فى انه لا فرق بين المحبة والمشيئة وقد قال الله تعالى {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ }الزمر٧ فاخبر انه اذا وقع الكفر من عباده لم يرضه لعباده كما قال { إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ }النساء١٠٨ وقال { وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ }البقرة٢٠٥ مع قوله { وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام١٢٥ و فصل الخطاب ان الأمر ليس مستلزما لمشيئة ان يخلق الرب الآمر الفعل المامور به ولا ارادة ان يفعله بل قد يأمر بما لا يخلقه وذلك مستلزم لمحبه الرب ورضاه من العبد ان يفعله بمعنى انه اذا فعل ذلك احبه ورضيه وهو يريد منه ارادة الآمر من المأمور بما امره به لمصلحته وان لم يريد ان يخلقه وان يعينه عليه لما له فى ترك ذلك من الحكمة فان له حكمه بالغة فيما خلقه وفيما لم يخلقه وفرق بين ان يريد ان يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلا يحسن اليه ويتفضل عليه بالإعانه له على مصلحته

وبين ان يأمر غيره بما يصلحة ويبين لهماينفعة اذا فعله وان كان لا يريد هو نفسه ان يعينه لما فى ترك اعانته من الحكمة لكون الاعانه قد تستلزم مايناقض حكمتة والمنهى عنه الذي خلقة هو يبغضه ويمقته كما يمقت ما خلقه من الاعيان الخبيثة كالشياطين والخبائث ولكنه خلقها لحكمه يحبها ويرضاها ونحن نعلم ان العبد يريد ان يفعل ما لا يحبه لافضائه الى ما يحبه كما يشرب المريض الدواء الكريه لافضائه الى ما يحبه من العافية ويفعل ما يكرهه من الاعمال لافضائه الى مطلوبه المحبوب له ولا منافاة بين كون الشيء بغيضا اليه مع كونه مخلوقا له لحكمه يحبها وكذلك لا منافاة بين ان يحبه اذا كان ولا يفعله لان فعله قد يستلزم تفويت ما هو احب اليه منه او وجود ما هو ابغض اليه من عدمه[1]

الإنذار الخاص هو التام النافع

أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفى لإنتفاء كماله وتمامه وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت١٧ فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد٧ وأما قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة٦ فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة٢ وقوله {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ }الأعراف٣٠ وقوله { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل٣٧ وقوله {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة١٦ وهذا كثير فى القرآن وكذلك الإنذار قد قال {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً }مريم٩٧ وقال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ }يونس٢ وقال في الخاص {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات٤٥ {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس١١ فهذا الإنذار الخاص وهو التام النافع الذى إنتفع به المنذر والإنذار هو الإعلام بالمخوف فعلم المخوف فخاف فآمن وأطاع وكذلك التذكير عام وخاص فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة قال تعالى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ{٨٦} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{٨٧}ص٨٦-٨٧ وقال تعالى { وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٧٣-٤٧٨

}المدثر ٣١ وقال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ }التكوير٢٧ ثم قال {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير٢٨ فذكر العام والخاص[1]

اتباع الذكر والخشية تحصل بعد الانذار

وقوله تعالى {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى١٠ يقتضى أن كل من يخشي يتذكر و الخشية قد تحصل عقب الذكر و قد تحصل قبل الذكر و قوله { مَن يَخْشَى }الأعلى١٠ مطلق و من الناس من يظن أن ذلك يقتضى أنه لابد أن يكون قد خشي أولا حتى يذكر و ليس كذلك بل هذا كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة٢ و قوله{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات٤٥ و قوله { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق٤٥ و قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس١١ و هو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه لم يكن وعيد قبل سماع القرآن و كذلك قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس١١ و هو إنما إتبع الذكر و خشى الرحمن بعد أن أنذره الرسول و قد لا يكونون خافوها قبل الإنذار و لا كانوا متقين قبل سماع القرآن بل به صاروا متقين و هذا كما يقول القائل ما يسمع هذا إلا سعيد و إلا مفلح و إلا من رضي الله عنه و ما يدخل في الإسلام إلا من هداه الله و نحو ذلك و إن كانت هذه الحسنات و النعم تحصل بعد الإسلام و سماع القرآن و مثل هذا قوله {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }الجاثية٢٠ و قد قال في نظيره {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى }الأعلى١١ و إنما يشقى بتجنبها و هذا كما يقال إنما يحذر من يقبل و إنما ينتفع بالعلم من عمل به فمن إستمع القرآن فآمن به و عمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم و من لم يؤمن به و لم يعمل به لم يكن من المتقين و لم يكن ممن إهتدى به بل هو كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى }فصلت٤٤ و لم يرد أنهم كانوا مؤمنين فلما سمعوه صار هدى و شفاء بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار فى حقه هدى و شفاء و كان من المؤمنين به بعد سماعه[2]

الجهل أصل ما يوقع الناس فى السيئات

فأصل ما يوقع الناس فى السيئات الجهل و عدم العلم بكونها تضرهم ضررا راجحا أو ظن أنها تنفعهم نفعا راجحا و لهذا قال الصحابة رضي الله عنهم كل من عصى الله فهو جاهل و فسروا بذلك قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ }النساء١٧ كقوله {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }الأنعام٥٤ و لهذا يسمى حال فعل السيئات الجاهلية فانه يصاحبها حال من حال جاهلية قال ابو العالية سألت اصحاب محمد صلى الله عليه و سلم عن هذه الآية {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ }النساء١٧ فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل و من تاب قبيل الموت فقد تاب من قريب وعن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٥٦-١٥٧
[2] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٧١-١٧٢

قتادة قال   اجمع اصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم على ان كل من عصى ربه فهو فى جهالة عمدا كان او لم يكن و كل من عصى الله فهو جاهل   و كذلك قال التابعون و من بعدهم قال مجاهد من عمل ذنبا من شيخ أو شاب فهو بجهالة و قال من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته و قال ايضا هو إعطاء الجهالة العمد و قال مجاهد أيضا من عمل سوءا خطأ أو إثما عمدا فهو جاهل حتى ينزع منه رواهن ابن أبي حاتم ثم قال و روى عن قتادة و عمرو بن مرة و الثوري و نحو ذلك ذلك   خطأ أو عمدا   وروى عن مجاهد و الضحاك قالا ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا و لا حراما و لكن من جهالته حين دخل فيه و قال عكرمة الدنيا كلها جهالة   وعن الحسن البصري أنه سئل عنها فقال هم قوم لم يعلموا مالهم مما عليهم قيل له أرأيت لو كانوا قد علموا قال فليخرجوا منها فانها جهالة   قلت و مما يبين ذلك قوله تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر٢٨ و كل من خشيه و أطاعه و ترك معصيته فهو عالم كما قال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ }الزمر٩   و قال رجل للشعبى أيها العالم فقال إنما العالم من يخشى الله   و قوله تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر٢٨ يقتضي أن كل من خشى الله فهو عالم فإنه لا يخشاه إلا عالم رضي الله عنه ويقتضي أيضا أن العالم من يخشى الله كما قال السلف   قال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا   ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين حصر الأول في الثاني وهو مطرد وحصر الثاني في الأول نحو قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس١١   وقوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات٤٥ وقوله   {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ {١٥} تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ {١٦} السجدة١٥ ـ١٦[1]

لطائف لغوية

١ـقال تعالى {يس{١} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{٢} إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{٣} عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٤} تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ{٥} لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{٦}يس ١ـ٦   عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب[2]

٢ـقال تعالى{ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ{٨} وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{٩} يس٨ ـ٩   وذكر الله الغشيان فى مواضع مثل قوله تعالى   { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ }الأعراف٥٤   وقوله {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٩٠ـ٢٩٣
[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

}الأعراف١٨٩ وقوله { أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } هود٥ هذا كله فيه احاطة من كل وجه[1]

٣-قال تعالى { وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠} إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ{١١} يس١٠ -١١عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء }الأعراف٣ وقوله { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه١٢٣ وقوله {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }الأنعام١٥٣ وقد يقرن به غيره كقوله {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }الأنعام١٥٥ وقوله {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }الأنعام١٠٦ وقوله {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }يونس١٠٩[2]

٤-قال تعالى { وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٠} إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ{١١} يس١٠ -١١وحصر الثاني في الأول نحو قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ }يس١١[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٢٥٠
[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٨
[3] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٦٤

يس١٢-٣٢

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ{١٢} وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ{١٣} إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ{١٤} قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ{١٥} قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ{١٦} وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ{١٧} قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{١٩} وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{٢٦} بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ{٢٧} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ{٢٨} إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ{٢٩} يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{٣٠} أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ{٣١} وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{٣٢}

الله تعالى خالق السبب والمسبب

جمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون إن العبد فاعل لفعله حقيقة وأن له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية وهم لا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون إن القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون أن لها تأثيرا لفظا ومعنى حتى جاء لفظ الأثر في مثل قوله تعالى { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ }يس١٢ وإن كان هناك التأثير هناك أعم منه في الآية لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب في مسبباتها والله تعالى خالق السبب والمسبب ومع أنه خالق السبب فلا بد له من سبب آخر يشاركه ولابد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره مع خلق الله له إلا بأن يخلق الله السبب الآخر ويزيل الموانع[١]

{ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}

---

[١]منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ١٣

فإنه سبحانه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وقال قال تعالى { وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}يس١٢ فقد أحصى وكتب ما يكون قبل أن يكون إلى أجل محدود فقد أحصى المستقبل المعدوم كما أحصى الماضي الذي وجد ثم عدم[١]

أخبر بالكتابة بقوله نحن

قوله تعالى { وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }ق١٦ يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك يعلمون ما يوسوس به العبد نفسه كما قال {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }الزخرف٨٠ فهو يسمع ومن يشاء من الملائكة يسمعون ومن شاء من الملائكة وأما الكتابة فرسله يكتبون كما قال ههنا {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }ق١٨ وقال تعالى { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}يس١٢ فأخبر بالكتابة بقوله نحن لأن جنده يكتبون بأمره وفصل فى تلك الآية بين السماع والكتابة لأنه يسمع بنفسه وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره والملائكة يكتبون فقوله { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }ق١٦ مثل قوله { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ }يس١٢ لما كانت ملائكته متقربين الى العبد بأمره كما كانوا يكتبون عمله بأمره قال ذلك وقربه من كل أحد بتوسط الملائكة كتكليمه كل أحد بتوسط الرسل كما قال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }الشورى٥١[٢]

لفظ القرية والنهر

قال تعالى { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ}يس١٣ لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هذه الأمور التى فيها الحال والمحال كلاهما داخل فى الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك فى النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً }النحل١١٢ وقوله {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ{٤} فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{٥} الأعراف٤-٥ وقال فى آية أخرى {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ }الأعراف٩٧ فجعل القرى هم السكان وقال {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ }محمد١٣ وهم السكان وكذلك قوله تعالى {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً }الكهف٥٩ وقال تعالى {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا }البقرة٢٥٩ فهذا المكان لا السكان لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قريت الماء فى الحوض اذا جمعته فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما

---

[١] درء التعارض ج: ١ ص: ١٢٤
[٢] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥١٢

يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ}يوسف٨٢ مثل قوله { قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً }النحل١١٢ فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضمار ولا حذف[1]

الحق يظهر صحته بالمثل المضروب له

قال تعالى { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ}يس١٣ فالحق يظهر صحته بالمثل المضروب له والباطل يظهر فساده بالمثل المضروب له لأن الإنسان قد لا يعلم ما في نفس محبوبه أو مكروهه من حمد وذم إلا بمثل يضرب له فإن حبك الشيء يعمى ويصم والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان والإنسان لا يرى نفسه وأعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها في مرآة وتمثل له أعماله بأعمال غيره ولهذا ضرب الملكان المثل لداود عليه السلام بقول أحدهما { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ{٢٣} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ {٢٤} ص ٢٣- ٢٤ الآية وضرب الأمثال مما يظهر به الحال وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده قال تعالى {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }الزمر٢٧ وقال تعالى {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ }العنكبوت٤٣ وهذا من الميزان الذي أنزله الله كما قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى١٧ وقال {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }الحديد٢٥ [2]

الأمثال و التشبيهات لا توجب التماثل من كل وجه

الأمثال و التشبيهات كثيرة جدا و هي لا توجب التماثل من كل وجه بل فيما سيق الكلام له و لا يقتضي اختصاص المشبه بالتشبيه بل يمكن أن يشاركه غيره له في ذلك قال تعالى {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ }البقرة٢٦١ و قال تعالى { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ}يس١٣ و قال {مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ }آل عمران١١٧ و قد قيل أن في القران اثنين و أربعين مثلا[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٣

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٣٤٧

[3] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٣٣٤

الرسل المذكورين في سورة يس ليس هم الحواريين

قال تعالى{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ{١٣} إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ{١٤} قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ{١٥} قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ{١٦} وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{١٧} قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{١٩} وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{٢٦} بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ{٢٧} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ{٢٨} إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ{٢٩} يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون{٣٠} يس ١٣-٣٠ فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين ولا أن الذين أرسلوا إليهم آمنوا بهم وفيه أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة أنزل الله عليهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون وقد ذكر طائفة من المفسرين أن هؤلاء كانوا من الحواريين وأن القرية أنطاكية وأن هذا الرجل اسمه حبيب النجار ثم إن بعضهم يقول إن المسيح أرسلهم في حياته لكن المعروف عند النصارى أن أهل إنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم لم يهلك الله أهل إنطاكية والقرآن يدل على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذي آمن بالرسل وأيضا فالنصارى يقولون إنما جاءوا إلى أهل إنطاكية بعد رفع المسيح وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث قيل أحدهما شمعون الصفا والآخر بولص ويقولون إن أهل إنطاكية آمنوا بهم ولا يذكرون حبيب النجار ولا مجيء رجل من أقصى المدينة بل يقولون إن شمعون وبولص دعوا الله حتى أحيا ابن الملك فالأمر المنقول عند النصارى أن هؤلاء المذكورين في القرآن ليسوا من الحواريين وهذا أصح القولين عند علماء المسلمين وأئمة المفسرين وذكروا أن المذكورين في القرآن في سورة يس ليسوا من الحواريين بل كانوا قبل المسيح وسموهم بأسماء غير الحواريين كما ذكر محمد بن إسحاق قال سلمة بن الفضل كان من حديث صاحب يس فيما حدثني محمد بن إسحاق عن ابن عباس وعن كعب وعن وهب بن منبه أنه كان رجلا من أهل إنطاكية وكان اسمه حبيبا وكان يعمل الحرير وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند باب من أبواب المدينة يتاجر وكان مؤمنا ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيما يذكرون فيقسمه نصفين فيطعم نصفه عياله ويتصدق بنصفه وكان بالمدينة التي هو بها مدينة إنطاكية فرعون من الفراعنة يقال له إنطخس بن إنطنخس يعبد الأصنام صاحب شرك فبعث الله إليه المرسلين وهم ثلاثة صادق وصدوق وشلوم فقدم الله إليه وإلى أهل المدينة منهم اثنين فكذبوهما ثم عزز الله بالثالث وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ{١٣} إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ{١٤} يس ١٣-١٤ لكي تكون الحجة عليهم أشد فأتوا أهل القرية فدعوهم إلى الله وحده وعبادته لا شريك له فكذبوهم فأتوا على رجل في ناحية القرية في زرع له فسألهم الرجل ما أنتم قالوا نحن رسل رب العالمين ارسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له قال لهم أتسألون على ذلك أجرا قالوا لا قال فألقى ما في يده ثم أتى أهل المدينة فقال { يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} يس ٢٠-٢١ وهذا القول هو الصواب وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلا لله قبل

المسيح وأنهم كانوا قد أرسلوا إلى إنطاكية وآمن بهم حبيب النجار فهم كانوا قبل المسيح ولم تؤمن أهل المدينة بالرسل بل أهلكهم الله تعالى كما أخبر في القرآن ثم بعد هذا عمرت إنطاكية وكان أهلها مشركين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين فآمنوا بالمسيح على أيديهم ودخلوا دين المسيح
ويقال إن إنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح عليه السلام وذلك بعد رفعه إلى السماء
ولكن ظن من ظن من المفسرين أن المذكورين في القرآن هم رسل المسيح وهم من الحواريين وهذا غلط لوجوه منها أن الله قد ذكر في كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرسل وأهل إنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا ومنها أن الرسل في القرآن ثلاثة وجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين ولم يأتهم رجل يسعى لا حبيب ولا غيره ومنها أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح فلم يكن الله أرسلهم وكذلك ذكر المفسرون في المرسلين هل أرسلهم الله أو أرسلهم المسيح قولين أحدهما أن الله هو الذي أرسلهم قال أبو الفرج ابن الجوزي وهذا ظاهر القرآن وهو مروي عن ابن عباس وكعب ووهب بن منبه قال وقال المفسرون في قوله {إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً {٢٩} يس٢٩ أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة وصاح بهم صيحة واحدة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا أطفئت وذلك قوله { فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ{٢٩} يس٢٩ أي ساكنون كهيئة الرماد الخامد ومعلوم عند الناس أن أهل إنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث المسيح بل آمنوا قبل أن يبدل دينه وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه إلى أن تبدل دينه بعد ذلك ومما يبين ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذاب من السماء يعمهم كما أهلك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وغيرهم بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من السماء فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل المذكورين في يس كانوا قبل موسى عليه السلام وأيضا فإن الله لم يذكر في القرآن رسولا أرسله غيره وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو وأيضا فإنه قال { إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ{١٤} يس١٤ فأخبر أنه أرسلهم كما أخبر أنه أرسل نوحا وموسى وغيرهما وفي الآية { قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ{١٥} يس ١٥ ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال إن الله أرسله وأنزل عليه الوحي لا لمن جاء رسولا من عند رسول وقد قال بعد هذا { يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{٣٠} أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ{٣١} وهذا إنما هو في الرسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله وأيضا فإن الله ضرب هذا مثلا لمن أرسل إليه محمدا يحذرهم أن ينتقم الله منهم كما انتقم من هؤلاء ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره لا بمن أصحابه أفضل منهم فإن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين ولم يبعث الله بعد المسيح رسولا بل جعل ذلك الزمان زمان فترة كقوله {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }المائدة١٩ وأيضا فإنه قال تعالى { إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ{١٤} قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ{١٥} قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ{١٦} يس ١٤-١٦ ولو كانوا رسل رسول لكان التكذيب لمن أرسلهم ولم يكن في قولهم إن أنتم إلا بشر مثلنا شبهة فإن أحدا لا ينكر أن يكون رسل رسل الله بشرا وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشرا وأيضا فلو كان التكذيب لهما وهما رسل الرسول لأمكنهما أن يقولا فأرسلوا إلى من أرسلنا أو إلى اصحابه فإنهم يعلمون صدقنا في البلاغ عنه بخلاف ما إذا كانا رسل الله وأيضا فقوله إذ أرسلنا إليهم اثنين صريح في أن الله هو المرسل ومن أرسلهم

غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبدالله أنهم رسل الله فلا يقال لدحية بن خليفة الكلبي أن الله أرسله ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة وعبدالله بن حذافة وأمثالهما ممن أرسلهم الرسول وذلك أن النبي أرسل رسله إلى ملوك الأرض كما أرسل دحية بن خليفة إلى قيصر وأرسل عبدالله بن حذافة إلى كسرى وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس كما تقدم ذكر ذلك ومعلوم أنه لا يقال في هؤلاء إن الله أرسلهم ولا يسمون عند المسلمين رسل الله ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون في قوله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات فإذا كانت رسل محمد لم يتناولهم اسم رسل الله في الكتاب الذي جاء به فكيف يجوز أن يقال إن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره والمقصود هنا بيان معاني القرآن وما أراده الله تبارك وتعالى بقوله { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ{١٣} إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ {١٤} يس١٣-١٤ هل مراد الله ورسوله محمد من أرسلهم الله أو من أرسلهم رسوله وقد علم يقينا أن محمد لم يدخل في مثل هذا فمن قال إن محمدا أراد بذلك من أرسله رسول فقد كذب على محمد عمدا أو خطأ[1]

الكفار يضيفون ما اصابهم من المصائب الى فعل اهل الايمان

الأمور التي يجعل الشر الواقع فيها بسبب ما جاء به الرسول فإن هذا كله باطل وهو من كلام الكفار قال تعالى لما ذكر الأمر بالجهاد وأن من الناس من يبطيء عنه { أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ }النساء٧٨ فهذا من كلام الكفار والمنافقين اذا اصابهم نصر وغيره من النعم قالوا هذا من عند الله وان اصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا هذا من عند محمد بسبب الذى جاء به فإن الكفار يضيفون ما اصابهم من المصائب الى فعل اهل الايمان وقد ذكر نظير ذلك فى قصة موسى وفرعون قال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{١٣٠} فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ {١٣١}الأعراف١٣٠-١٣١ ونظيره قوله تعالى فى سورة يس { قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ{١٦} وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{١٧} قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} يس١٦-١٨ فاخبر الله تعالى ان الكفار كانوا يتطيرون بالمؤمنين فاذا اصابهم بلاء جعلوه بسبب اهل الايمان وما اصابهم من الخير جعلوه لهم من الله عز وجل فقال تعالى { فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً }النساء٧٨ والله تعالى نزل احسن الحديث فلو فهموا القرآن لعلموا ان الله امرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر امر بالخير ونهى عن الشر فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سببا للشر بل الشر حصل بذنوب العباد فقال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ }النساء٧٩ اى ما اصابك من نصر ورزق وعافية فمن الله نعمة انعم بها عليك وان كانت بسبب اعمالك الصالحة فهو الذى هداك واعانك ويسرك لليسرى ومن عليك بالايمان وزينه فى قلبك وكره اليك الكفر والفسوق والعصيان وفى اخر الحديث الصحيح الالهى حديث ابى ذر عن النبى فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى يا عبادى انما هى اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٤٤-٢٥٣ و الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٩٦

خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه وفى الحديث الصحيح سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم انت ربى لا اله الا انت خلقتنى وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا انت من قالها اذا اصبح موقنا بها فمات من يومه ذلك دخل الجنة ومن قالها اذا امسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة ثم قال تعالى { وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ }النساء٧٩من ذل و خوف و هزيمة كما أصابهم يوم أحد { فَمِن نَّفْسِكَ}النساء٧٩ أي بذنوبك و خطاياك و أن كان ذلك مكتوبا مقدرا عليك فإن القدر ليس حجة لأحد لا على الله و لا على خلقه و لو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم و لم يقاتل مشرك و لم يقم حد و لم يكف أحد عن ظلم أحد و هذا من الفساد في الدين و الدنيا المعلوم ضرورة فساده للعالم بصريح المقول المطابق لما جاء به الرسول فالقدر يؤمن به و لا يحتج به فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس و من إحتج به ضارع المشركين و من أقر بالأمر و القدر و طعن فى عدل الله و حكمته كان شبيها بإبليس فإن الله ذكر عنه أنه طعن في حكمته و عارضه برأيه و هواه و أنه قال { بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ }الحجر٣٩ [1]

{ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ }

قال تعالى{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ{١٣} إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ{١٤} قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ{١٥} قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ{١٦} وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{١٧} قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{١٩} يس١٣-١٩ فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدوق المبين للناس ما نزل اليهم المبلغ لرسالة ربه المخاطب لهم بلسان عربى مبين قال تعالى{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ }إبراهيم٤ وقال تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }الزخرف٣ وقال تعالى {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }القمر١٧ [2]

ما أصابكم من أمر فمن الله بما كسبت أيديكم

على جهة التشاؤم و التطير أي هذا عقوبة لنا بسبب دينك كما كان قوم فرعون يتطيرون بموسى و بمن معه و كما قال أهل القرية للمرسلين { إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ }يس١٨ و كما قال الكفار من ثمود لصالح و لقومه {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ }النمل٤٧ فكانوا يقولون عما يصيبهم من الحرب و الزلزال و الجراح و القتل و غير ذلك مما يحصل من العدو هو منك لأنك أمرتنا بالأعمال الموجبة لذلك و يقولون عن هذا و عن المصائب السمائية إنها منك أي بسبب طاعتنا لك و اتباعنا لدينك أصابتنا هذه المصائب كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }الحج١١

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:١١٢- ١١٧ ومنهاج السنة النبوية ج: ٥ ص:١٣٧- ١٣٨
[2] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٦٤

فهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول و فعل ما بعث به مسببا لشر أصابه إما من السماء و إما من آدمي و هؤلاء كثيرون قال أصحاب القرية للمرسلين {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ }يس١٨ و كما قال تعالى عن آل فرعون {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }الأعراف١٣١ و قال تعالى عن قوم صالح {قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ }النمل٤٧ ولما قال أهل القرية {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{١٩}يس١٨-١٩ قال الضحاك فى قوله { أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ }الأعراف١٣١ يقول الأمر من قبل الله ما أصابكم من أمر فمن الله بما كسبت أيديكم و قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس معايبكم وقال قتادة عملكم عند الله و فى رواية غير على عملكم عند الله و لكنكم{ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ }النمل٤٧ أي تبتلون بطاعة الله و معصيته رواهما ابن أبي حاتم و غيره و عن ابن إسحاق قال قالت الرسل {طَائِرُكُمْ مَعَكُم }يس١٩ أي أعمالكم فقد فسروا الطائر بالأعمال و جزائها لأنهم كانوا يقولون إنما أصابنا ما أصابنا من المصائب بذنوب الرسل و أتباعهم فبين الله سبحانه أن طائرهم و هو الأعمال و جزاؤها هو عند الله و هو معهم فهو معهم لأن أعمالهم و ما قدر من جزائها معهم كما قال تعالى و {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ }الإسراء١٣ و هو من الله لأن الله تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم فمن عنده تتنزل عليهم المصائب جزاء على أعمالهم لا بسبب الرسل و أتباعهم و فى هذا يقال إنهم إنما يجزون بأعمالهم لا بأعمال غيرهم و لذلك قال فى هذه الآية لما كان المنافقون و الكفار و من فى قلبه مرض يقول هذا الذي أصابنا هو بسبب ما جاء به محمد عقوبة دينية وصل إلينا بين سبحانه أن ما أصابهم من المصائب إنما هو بذنوبهم ففى هذا رد على من أعرض عن طاعة الرسول صلى الله عليه و سلم لئلا تصيبه تلك المصائب و على من انتسب الى الايمان بالرسول و نسبها إلى فعل ما جاء به الرسول و على من أصابته مع كفره بالرسول و نسبها إلى ما جاء به الرسول والمقصود أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم ليس سببا لشيء من المصائب و لا تكون طاعة الله و رسوله قط سببا لمصيبة بل طاعة الله و الرسول لا تقتضى إلا جزاء أصحابها بخيري الدنيا و الآخرة و لكن قد تصيب المؤمنين بالله و رسوله مصائب بسبب ذنوبهم لا بما اطاعوا فيه الله و الرسول كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم لا بسبب طاعتهم الله و رسوله صلى الله عليه و سلم و كذلك ما ابتلوا به فى السراء و الضراء و الزلزال ليس هو بسبب نفس إيمانهم و طاعتهم لكن امتحنوا به ليتخلصوا مما فيهم من الشر و فتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليتميز طيبه من خبيثه و النفوس فيها شر و الامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذى فى نفسه قال تعالى { وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {١٤٠} وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ{١٤١}آل عمران١٤٠ -١٤١و قال تعالى { وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ }آل عمران١٥٤ و لهذ قال صالح عليه السلام لقومه { طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ }النمل٤٧ و لهذا كانت المصائب تكفر سيئات المؤمنين و بالصبر عليها ترتفع درجاتهم و ما أصابهم فى الجهاد من مصائب بأيدي العدو فانه يعظم أجرهم بالصبر عليها و فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم قال ما من غازية يغزون فى سبيل الله فيسلمون و يغنمون إلا تعجلوا ثلثي أجرهم و إن أصيبوا و أخفقوا تم لهم أجرهم و أما ما يلحقهم من الجوع

و العطش و التعب فذاك يكتب لهم به عمل صالح كما قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }التوبة١٢٠ و شواهد هذا كثيرة[١]

إن المشركين لم يكن أحد منهم يقول إن العالم له خالقان

ودين الإسلام مبنى على أصلين و هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و أول ذلك أن لا تجعل مع الله الها آخر فلا تحب مخلوقا كما تحب الله و لا ترجوه كما ترجو الله و لا تخشاه كما تخشى الله ومن سوى بين المخلوق والخالق فى شىء من ذلك فقد عدل بالله و هو من الذين بربهم يعدلون وقد جعل مع الله الها آخر وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض
فإن مشركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ }العنكبوت٦١ وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى قال تعالى { أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ }الأنعام١٩ وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة١٦٥ فصاروا مشركين لأنهم أحبوهم كحبه لا أنهم قالوا ان آلهتهم خلقوا كخلقه كما قال تعالى { أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ }الرعد١٦ وهذا استفهام إنكار بمعنى النفى أى ما جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فإنهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلقه وإنما كانوا يجعلونهم شفعاء ووسائط قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }يونس١٨ وقال صاحب يس {وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس ٢٢-٢٥[٢]

فإن المشركين لم يكن أحد منهم يقول إن العالم له خالقان ولا إن الله معه إله يساويه في صفاته هذا لم يقله أحد من المشركين بل كانوا يقرون بأن خالق السموات والأرض واحد كما أخبر الله عنهم بقوله{قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٨٤} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ{٨٥} قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ{٨٦} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ{٨٧} قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٨٨} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ{٨٩} المؤمنون٨٤-٨٩ وكانوا يتخذون آلهتهم وسائط تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم كما قال تعالى عن صاحب يس { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص:٢٤٩- ٢٥٠ و الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٣٤-٣٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣١١

الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس٢٢-٢٥[1]

المؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون

فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله الى عباده فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة وأما المخالفون للرسل فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة قال تعالى{ وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس٢٠-٢٥[2]

قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهى وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون[3]

الأمر باتباع السلف

فالأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ }الأعراف٣ {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ }الأنعام١٥٥ واما السلف مثل قوله { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ }النساء٨٣ وقوله {فَإِن تَنَازَعْتُمْ }النساء٥٩ وقوله { وَلِلْمُؤْمِنِينَ }المنافقون٨ وقوله { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ }المنافقون٨ ولو خرج المؤمنون عن الحق

---

[1] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤٤٣
[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢٢
[3] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨

والهدى لما كانت لهم العزة اذ ذاك من تلك الجهة لآن الباطل والضلال ليس من الايمان الذى يستحق به العزة والعزة مشروطة بالايمان لقوله {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران١٣٩ ومنها قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة٦-٧ أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً }النساء٦٩ الآية وفيها الدلالة ومنها قوله {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ }لقمان١٥ والسلف المؤمنون منيبون اى فيجب اتباع سبيلهم ومنها قوله {اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ }يس٢١ والسلف كذلك[1]

الرسول يعلم و يهدي

الرسول صلى الله عليه و سلم بعثه الله تعالى هدى و رحمة للعالمين فإنه كما أرسله بالعلم و الهدى و البراهين العقلية و السمعية فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس و الرحمة لهم بلا عوض و بالصبر على أذاهم و إحتماله فبعثه بالعلم و الكرم و الحلم عليم هاد كريم محسن حليم صفوح قال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٥٢} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ{٥٣} الشورى ٥٢-٥٣ و قال تعالى {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }إبراهيم١ و قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى٥٢ و نظائره كثيرة و قال {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}الفرقان٥٧ و قال {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }سبأ٤٧ و قال{ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً }الأنعام٩٠ فهو يعلم و يهدي و يصلح القلوب و يدلها على صلاحها فى الدنيا و الآخرة بلا عوض و هذا نعت الرسل كلهم كل يقول {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ }الشعراء١٠٩ و لهذا قال صاحب يس { يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١}يس٢١ و هذه سبيل من اتبعه كما قال {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي }يوسف١٠٨[2]

ما سوى الله لا يملك ضرا ولا نفعا

قوله { يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ } الحج١٢هو نفى لكونه المدعو المعبود من دون الله يملك نفعا أو ضرا و هذا يتناول كل ما سوى الله من الملائكة والبشر والجن والكواكب والأوثان كلها فإنما سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا كما قال تعالى في سياق نهيه عن عبادة المسيح { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٧٣} أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٥٠٤
[2] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٣١٣- ٣١٦

رَّحِيمٌ{٧٤} مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{٧٥} قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{٧٦}المائدة٧٣-٧٦ وقد قال لخاتم الرسل {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ }الأعراف١٨٨ وقال {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً }الجن٢١ وقال على العموم {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ }فاطر٢ وقال {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ }يونس١٠٧ وقال { قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }الزمر٣٨ وقال صاحب يس { وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس ٢٢-٢٥ وقوله {يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ }الحج١٢ نفى عام كما فى قوله { وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً }طه٨٩ فهو لا يقدر أن يضر أحدا سواء عبده أو لم يعبده ولا ينفع أحدا سواء عبده أو لم يعبده وقول من قال لا ينفع أن عبد ولا يضر إن لم يعبد بيان لإنتفاء الرغبة والرهبة من جهته بخلاف الرب الذى يكرم عابديه ويرحمهم ويهين من لم يعبده ويعاقبه التحقيق انه لا ينفع ولا يضر مطلقا فإن الله سبحانه وسعت رحمته كل شيء وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبده فنفعه للعباد لا يختص بعابديه وإن كان فى هذا تفصيل ليس هذا موضعه وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده وهو سبحانه الضار النافع قادر على أن يضر من يشاء وإن كان ما ينزله من الضر بعابديه هو رحمة فى حقهم كما قال أيوب { مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }الأنبياء٨٣ وقال تعالى {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ }الأنعام١٧ وقال أيضا لرسوله محمد صلى الله عليه سلم {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ }الأعراف١٨٨ وقال تعالى {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ }البقرة١٧٧ وهو سبحانه يحدث ما يحدثه من الضرر بمن لا يوصف بمعصية من الأطفال والمجانين والبهائم لما فى ذلك منة الحكمة والنعمة والرحمة كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع[1]

" ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان "

ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص:٢٧٠- ٢٧٣

عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملا صالحا بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوةالنبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٨٣}ص٨٢ -٨٣ وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر٤٢ وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠}النحل٩٩-١٠٠ فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف٢٤ واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص٨٥ وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ }النساء٤٨ وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً }الزمر٥٣ فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الآولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{٤} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء {٥} البينة٤-٥ الآية وهذا حقيقة قول لا اله إلاالله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء٢٥ وقال {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف٤٥ وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل٣٦ وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ }الأعراف٥٩ وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول { اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ } لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هوالامام الذى قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }البقرة١٢٤ وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{٢٦} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{٢٧} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٢٨} الزخرف٢٦-٢٨ فهذه الكلمة هى كلمة الاخلاص لله وهى البراءة من كل معبود

الامن الخالق الذى فطرنا كما قال صاحب يس { وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس ٢٢-٢٥[1]

محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس

قال تعالى{ وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس ٢٠-٢٥

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران٨٥ وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات٥٦ فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا[2]

الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله

فمحبة الله ورسوله وعباده المتقين تقتضى فعل محبوباته وترك مكروهاته والناس يتفاضلون فى هذا تفاضلا عظيما فمن كان اعظم نصيبا من ذلك كان أعظم درجة عند الله واما من احب شخصا لهواه مثل ان يحبه لدنيا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٢
[2] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣٢

يصيبها منه او لحاجة يقوم له بها او لمال يتاكله به او بعصبية فيه ونحو ذلك من الاشياء فهذه ليست محبة لله بل هذه محبة لهوى النفس وهذه المحبة هى التى توقع اصحابها فى الكفر والفسوق والعصيان وما اكثر من يدعى حب مشائخ لله ولو كان يحبهم لله لاطاع الله الذى احبهم لاجله فان المحبوب لاجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير وكيف يحب شخصا لله من لا يكون محبا لله وكيف يكون محبا لله من يكون معرضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبيل الله وما أكثر من يحب شيوخا أو ملوكا وغيرهم فيتخذهم اندادا يحبهم كحب الله والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهرة فاهل الشرك يتخذون اندادا يحبونهم كحب الله والذين امنوا اشد حبا لله واهل الايمان يحبون وذلك ان اهل الايمان اصل حبهم هو حب الله ومن احب الله احب من يحبه الله ومن احبه الله احب الله فمحبوب المحبوب محبوب لله يحب الله فمن احب الله احبه الله فيحب من احب الله واما اهل الشرك فيتخذون اندادا وشفعاء يدعونهم من دون الله قال الله تعالى {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }الأنعام٩٤ وقال الله تعالى {وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس٢٢-٢٥ وقال الله تعالى {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }الأنعام٥١ [1]

أصل عظيم على المسلم أن يعرفه

فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه فإنه أصل الإسلام الذى يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وقد وقع كثير من الناس فى الإخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما مع ظنه أنه فى غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة فإقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله ان لم يقترن به اقراره بأنه لا اله الا الله فلا يستحق العبادة أحد الا هو وأن محمدا رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر فإنه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون اذن الله قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }يونس١٨ فاخبر ان هؤلاء الذين أتخذوا هؤلاء شفعاء مشركون وقال تعالى عن مؤمن يس { وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس٢٢-٢٥ [2]

الله سبحانه لم يجعل له أحدا واسطة فى شيء من الربوبية والألوهية

وقال تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٠} بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ{٤١}الأنعام٤٠-٤١ وكذلك قوله { آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ{٥٩} أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٣١٧ و مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٢١

[2] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٠٥

السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ{٦٠} أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ {٦١}}النمل٥٩-٦١ أى أإله مع الله فعل هذا وهذا استفهام انكار وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا اله آخر مع الله ومن قال من المفسرين ان المراد هل مع الله اله آخر فقد غلط فانهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى }أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ }الأنعام١٩ وقال تعالى { فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ } هود١٠١ وقال تعالى عنهم {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }ص٥ وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله فى خلق السموات والأرض ولا خلق شىء بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ}يونس١٨ وقال عن صاحب يس { وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢}أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ }يس٢٢-٢٣ وقال تعالى {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }الأنعام٥١ وقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }السجدة٤ وقال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ{٢٢} وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ{٢٣} سبأ٢٢-٢٣ فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عونا لله ولم يبق الا الشفاعة فبين أنها لاتنفع الا لمن أذن له الرب كما قال تعالى { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة٢٥٥ وقال تعالى عن الملائكة { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى }الأنبياء٢٨ وقال {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى }النجم٢٦ فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هى منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن وأما ما أخبر به النبى أنه يكون فأخبر أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولا فاذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه يقال له أى محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فيقول أى رب أمتى فيحد له حدا فيدخلهم الجنة وكذلك فى الثانية وكذلك فى الثالثة وقال له أبو هريرة من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه فتلك الشفاعة هى لأهل الاخلاص باذن الله ليست لمن أشرك بالله ولا تكون الا باذن الله وحقيقته ان الله هو الذى يتفضل على أهل الاخلاص والتوحيد فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذى أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك وينال به المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون كما كان فى الدنيا يستسقى لهم ويدعو لهم وتلك شفاعة منه لهم فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته واذا كان كذلك فالظلم ثلاثة أنواع فالظلم الذى هو شرك لا شفاعة فيه وظلم الناس بعضهم بعضا لابد فيه من اعطاء المظلوم حقه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة فالظالم المطلق ما له من شفيع مطاع وأما الموحد فلم يكن ظالما مطلقا بل هو موحد مع ظلمه لنفسه وهذا انما نفعه فى الحقيقة اخلاصه لله فبه صار من أهل الشفاعة ومقصود القرآن بنفى الشفاعة نفى الشرك وهو أن أحدا لا يعبد الا الله ولا يدعو غيره ولا يسأل غيره ولا يتوكل على غيره لا فى شفاعة ولا غيرها فليس له أن يتوكل على أحد فى أن يرزقه وان كان الله يأتيه برزقه بأسباب كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله فى أن يغفر له ويرحمه فى الآخرة وان كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها فالشفاعة التى نفاها القرآن مطلقا ما كان فيها شرك وتلك

منتفية مطلقا ولهذا أثبت الشفاعة باذنه فى مواضع وتلك قد بين الرسول أنها لا تكون الا لأهل التوحيد والاخلاص فهى من التوحيد ومستحقها أهل التوحيد[1]

ان الله سبحانه وتعالى نفى الشفاعة التى يثبتها أهل الشرك

ان الله سبحانه وتعالى نفى الشفاعة التى يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع اليه شفاعة شافع لحاجته اليه رغبة ورهبة وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورون تماثليهم فيستشفعون بها ويقولون هؤلاء خواص الله فنحن نتوسل الى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا كما يتوسل الى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب الى الملوك من غيرهم فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج الى إجابة شفاعته رغبة ورهبة فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى وقال صاحب يس {وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس ٢٢-٢٥ وقال تعالى{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{١٨} يونس١٨ فهذه الشفاعة التى أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثليهم وقالوا استشفاعنا بتماثليهم استشفاع بهم وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا الى الله وصوروا تماثليهم فعبدوهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها قال الله تعالى عن قوم نوح {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً {٢٣} وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً {٢٤} نوح٢٣ -٢٤ قال بن عباس وغيره هؤلاء قوم صالحون كانون فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثليهم فعبدوهم وهذا مشهور فى كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخارى وغيره وهذه أبطلها النبى وحسم مادتها وسد ذريعتها حتى لعن من إتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلى فيها لا يستشفع بهم ونهى عن الصلاة الى القبور وأرسل على بن أبى طالب فأمره أن لا يدع قبرا مشرفا الا سواه ولا تمثالا إلا طمسه ومحاه ولعن المصورين وعن أبى الهياج الأسدى قال لى على بن أبى طالب لأبعثك على ما بعثنى رسول الله ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته وفى لفظ ولا صورة إلا طمستها أخرجه مسلم[2]

أهل السنة والجماعة أثبتوا الشفاعة التى أثبتها الله

والله سبحانه لم يجعل له أحدا من الأنبياء والمؤمنين واسطة فى شىء من الربوبية والألوهية مثل ما ينفرد به من الخلق والرزق وإجابة الدعاء والنصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات بل غاية ما يكون العبد سببا مثل أن يدعو أو يشفع والله تعالى يقول{ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٧٦-٧٩
[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٤٩-١٥٣

بِإِذْنِهِ}البقرة٢٥٥ ويقول {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى }الأنبياء٢٨ ويقول {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى }النجم٢٦ وقال تعالى { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{٥٦} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{٥٧}الإسراء٥٦-٥٧ قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فنهاهم الله عن ذلك فى قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ{٧٩} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{٨٠} آل عمران٧٩ - ٨٠ فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ولهذا كان الناس فى الشفاعة على ثلاثة أقسام فالمشركون أثبتوا الشفاعة التى هى شرك كشفاعة المخلوق عند المخلوق كما يشفع عند الملوك خواصهم لحاجةالملوك إلى ذلك فيسألونهم بغير إذنهم وتجيب الملوك سؤالهم لحاجتهم إليهم فالذين أثبتوا مثل هذه الشفاعة عند الله تعالى مشركون كفار لأن الله تعالى لا يشفع عنده أحد الا باذنه ولا يحتاج إلى أحد من خلقه بل من رحمته وإحسانه إجابة دعاء الشافعين وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها ولهذا قال تعالى {مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ }السجدة٤ وقال {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }الأنعام٥١ وقال تعالى { أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ{٤٣} قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً{٤٤}الزمر٤٣-٤٤ وقال تعالى عن صاحب يس {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥}يس٢٣ -٢٥ وأما الخوارج والمعتزلة فانهم أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم فى أهل الكبائر من أمته وهؤلاء مبتدعة ضلال مخالفون للسنة المستفيضة عن النبى ولإجماع خير القرون والقسم الثالث هم أهل السنة والجماعة وهم سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم باحسان أثبتوا ما أثبته الله فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ونفوا ما نفاه الله فى كتابه وسنة رسوله فالشفاعة التى أثبتوها هي التى جاءت بها الأحاديث كشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إذا جاء الناس إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم يأتونه عليه السلام قال فأذهب الى ربى فإذا رأيت ربى خررت له ساجدا فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا احسنها الآن فيقول أى محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع فهو يأتى ربه سبحانه فيبدأ بالسجود والثناء عليه فإذا اذن له فى الشفاعة شفع بأبى هو وامى وأما الشفاعة التى نفاها القرآن كما عليه المشركون والنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة فينفيها أهل العلم والإيمان مثل انهم يطلبون من الأنبياء والصالحين الغائبين والميتين قضاء حوائجهم ويقولون إنهم إذا أرادوا ذلك قضوها ويقولون إنهم عند الله تعالى كخواص الملوك عند الملوك يشفعون بغير إذن الملوك ولهم على الملوك أدلال يقضون به حوائجهم فيجعلونهم لله تعالى بمنزلة شركاء الملك وبمنزلة أولاده والله تعالى قد نزه نفسه المقدسة عن ذلك كما قال تعالى {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً }الإسراء١١١ ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تطرونى كما اطرت النصارى إبن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص:٣٤١- ٣٤٣

قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارج له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل٣٦ وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ }يس٢٣ فالعبادة والإستعانة وما يدخل فى ذلك من الدعاء والإستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والإستغفار كل هذا لله وحده لا شريك له فالعبادة متعلقة بألوهيته والإستعانة متعلقة بربوبيته والله رب العالمين لا إله إلا هو ولا رب لنا غيره لا ملك ولا نبى ولا غيره بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له ندا وهو خلقك والشرك أن تجعل لغيره شركا أو نصيبا فى عبادتك وتوكلك وإستعانتك كما قال من قال { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }الزمر٣[1]

الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب ياسين { وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس ٢٠-٢٥[2]

الدين الذي بعث الله به رسله

إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه فهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وانزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله وبذلك بعث جميع الرسل وجميع الرسل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٤
[2] التحفة العراقية ج: ١ ص: ٦١

افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل صالح هود وشعيب هود عليهم السلام وغيرهم كل يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره لا سيما أفضلا الرسل اللذين اتخذ الله كلاهما خليلا إبراهيم ومحمدا عليهما السلام فإن هذا الأصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب ياسين { وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس ٢٢-٢٥ وقال تعالى في قصته بعد أن ذكر ما يبين ضلال من اتخذ بعض الكواكب ربا يعبده من دون الله[1]

الدين الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو عبادة الله وحده لا شريك له واستعانته والتوكل عليه ودعاؤه لجلب المنافع ودفع المضار وقالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة قال الله تعالى هؤلاء الذين تدعونهم عبادي كما أنتم عبادي ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ويتقربون إلي كما تتقربون إلي فإذا كان هذا حال من يدعو الأنبياء والملائكة فكيف بمن دونهم فبين سبحانه أن من دعي من دون الله من جميع المخلوقات من الملائكة والبشر وغيرهم أنهم لا يملكون مثقال ذرة في ملكه وأنه ليس له شريك في ملكه بل هو سبحانه له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وأنه ليس له عون يعاونه كما يكون للملك أعوان وظهراء وأن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن ارتضى فنفى بذلك وجوه الشرك كما قال تعالى {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ }يس٢٣[2]

من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله

ومعلوم أنه لا يكون شىء الا بمشيئة الله وقدرته وأن الخلق ليس منهم شىء الا ما أحدثه الله فيهم فاذا انقطع طلب القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذى لا يأتى بها الا هو قال تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ }فاطر٢ وقال تعالى{وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ }يونس١٠٧ وقال تعالى { وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ }الأنعام١٧ وقال تعالى قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ }الزمر٣٨ وقال صاحب يس {أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ {٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤}يس٢٣-٢٤ ولهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده فى غير موضع وفى الأثر من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده

---

[1] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٦١
[2] زيارة القبور ج: ١ ص: ٨

قال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً } الفرقان٥٨[١]

القسم المحمود من الناس وهو حال الذين حققوا إياك نعبد وإياك نستعين وقوله هود فاعبده وتوكل عليه فاستعانوا به على طاعته وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه وطاعة رسوله وأنه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع وأنه { إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ }يس٢٣ ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع وإنما التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضي التوحيد والعقل والشرع[٢]

من جعل الملائكة والأنبياء وسائط في جلب المنافع ودفع المضار فهو كافر

فمن اعتقد أنه لا بد من واسطة فى جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة فى رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجون اليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذى كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حتى قال {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } الأنعام٥١ وقال { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً {٥٦} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً {٥٧} الإسراء٥٦-٥٧ قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة والأنبياء فقال الله تعالى هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادى كما أنتم عبادى يرجون رحمتى كما ترجون رحمتى ويخافون عذابى كما تخافون عذابى ويتقربون الى كما تتقربون الى فنهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم وكذلك الأنبياء والصالحون وان كانوا أحياء فى قبورهم وان قدر انهم يدعون للأحياء وان وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ولم يفعل ذلك أحد من السلف لأن ذلك ذريعة الى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من أحدهم فى حياته فانه لا يفضى الى الشرك ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالامر الكونى فلا يؤثر فيه سؤال السائلين بخلاف سؤال أحدهم فى حياته فانه يشرع اجابة السائل وبعد الموت انقطع التكليف عنهم وقال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {٧٩} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ {٨٠} آل عمران٧٩ -٨٠ فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين قال

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٣٢٢
[٢] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٥٢

تعالى{ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} يس٢٣-٢٤ [1]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى{ وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} يس٢٠-٢٥

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله {اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء }الأعراف٣ وقوله { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه١٢٣ وقوله {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }الأنعام١٥٣ وقد يقرن به غيره كقوله {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }الأنعام١٥٥ وقوله {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }الأنعام١٠٦ وقوله {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }يونس١٠٩ وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة٦ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة٢ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا }الأعراف٤٣ وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام٨٧ وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل١٢١ { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى١٣ وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ }التوبة٣٣ والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا وكذلك ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ -٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ -٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ }القمر٤٧ [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص:١٦٦- ١٦٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢٥ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٣٠-٣٣١

إن الله قد أخبر عن هذه القرية أنه قد أهلك أهلها

قال تعالى{ وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{٢٠} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{٢١} وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢٢} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{٢٣} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٢٤} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{٢٦} بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ{٢٧} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ{٢٨} إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ{٢٩} يس٢٠-٢٩ ومثال ذلك ما ذكره بعضهم أو كثير منهم من أن الرسل المذكورين في سورة يس هم من حواريي المسيح عليه السلام وأن حبيب النجار آمن بهم وهذا أمر باطل عند أجلاء علماء المسلمين وعند أهل الكتاب فإن الله قد أخبر عن هذه القرية التي جاءها المرسلون أنه قد أهلك أهلها فقال تعالى {إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ }يس٢٩ وأنطاكية لما جاءها اثنان من الحواريين بعد رفع المسيح آمنوا بهما وهي أول مدينة اتبعت المسيح ولم يهلكهم الله بعد المسيح باتفاق المسلمين وأهل الكتاب فكيف يجوز أن يقال هؤلاء هم رسل المسيح وأيضا فإن الذين أتوهم كانا اثنين من الحواريين وأهل الكتاب معترفون بذلك ولم يكن حبيب النجار موجودا حينئذ بل هؤلاء رسل أرسلهم الله قبل المسيح وأهلك أهل تلك القرية وقد قيل إنها أنطاكية وآمن حبيب بأولئك الرسل ثم بعد هذا عمرت أنطاكية وجاءتهم رسل المسيح بعد ذلك والحواريون ليسوا رسل الله عند المسلمين بل هم رسل المسيح كالصحابة الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسلهم إلى الملوك ومن زعم أن هؤلاء حواريون فقد جعل للنصارى حجة لا يحسن أن يجيب عنها وقد بسطنا ذلك في الرد على النصارى وبينا أن الحواريين لم يكونوا رسلا فإن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل إبراهيم وموسى وقد يفضلونهم على إبراهيم وموسى وهذا كفر عند المسلمين وقد بينا ضلال النصارى في ذلك آخره والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه[1]

المخالفون للرسل فإنهم ملعونون

فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله الى عباده فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة وأما المخالفون للرسل فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة وقال تعالى{ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{٢٦} بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ{٢٧} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ{٢٨} إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ{٢٩} يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{٣٠} أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ{٣١} وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{٣٢}يس٣٠-٣٢[2]

---

[1] رسالة في قصة شعيب ج: ١ ص: ٦٥-٦٦
[2] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢٢

ذكر طريقتين يعلم بهما أحوال إتباع الأنبياء وأحوال من كذبهم

ومن الطريق الطرق الواضحة القاطعة المعلومة إلى قيام الساعة بالتواتر من أحوال إتباع الأنبياء وأحوال من كذبهم وكفر بهم حال نوح وقومه وهود وقومه وصالح وقومه وحال إبراهيم وقومه وحال موسى وفرعون وحال محمد وقومه وهذا الطريق قد بينها الله في غير موضع من كتابه كقوله {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ } غافر٥ إلى قوله { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } غافر٥ وقال {وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ {٤٢} وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ{٤٣} وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى {٤٤}الحج٤٢ ـ٤٤ إلى قوله {٤٤} فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ {٤٥} الحج٤٥ إلى قوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا {٤٦} الحج٤٦ وقوله {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ {١٣٧} وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{١٣٨}الصافات١٣٧ ـ١٣٨ وقال {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ }الحجر٧٥ فبين أنه تارك آثار القوم المعذبين للمشاهدة ويستدل بذلك على عقوبة الله لهم وقال تعالى {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ }يس٣١ فذكر طريقتين يعلم بهما ذلك أحدهما ما يعاين ويعقل بالقلوب والثاني ما يسمع فإنه قد تواتر عند كل أحد حال الأنبياء ومصدقهم ومكذبهم وعاينوا من آثارهم ما دل على أنه سبحانه عاقب مكذبكم وانتقم منهم وأنهم كانوا على الحق الذي يحبه ويرضاه وأن من كذبهم كان على الباطل الذي يغضب الله على أهله وإن طاعة الرسل طاعة الله ومعصيتهم معصية لله[1]

لطائف لغوية

١ ـقال تعالى{ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ }يس١٨

وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا إجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم[2]

٢ ـقال تعالى{ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٨} قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{١٩} يس ١٨ـ ١٩ فالاسراف مجاوزة الحد تعدى الحد ومجاوزة القصد[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢١٤
[2] الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ١٢٢

[3] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٩٥

٣-قال تعالى{ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{٢٥} قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{٢٦} يس٢٥-٢٦ ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

يس ٣٣ـ٤٤

{وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ{٣٣} وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ{٣٤} لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٣٥} سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ{٣٦} وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠} وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{٤١} وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ{٤٢} وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ{٤٣} إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ{٤٤}

القرآن قد سمى الجماد ميتا

فالقرآن قد سمى الجماد ميتا فى غير موضع كقوله تعالى { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{٢٠} أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ{٢١} النحل٢٠ـ٢١ الآية فسمى الأصنام أمواتا و هى حجارة و قال {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا }يس٣٣ و لانسلم إمتناع قبول هذه الحياة بل الرب تعالى قد جعل الجمادات قابلة للحياة و لا يمتنع قبولها لها فإن الله تعالى قد جعل عصى موسى حية تسعى فدل على أن الخشب يمكن أن يكون حيوانا موسى لما إغتسل جعل ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه و قد أحيا الله الحوت المشوي الذى كان معه و مع فتاه و قد سبح الحصا و الطعام سبح و هو يؤكل و كان حجر يسلم على النبى صلى الله عليه و سلم و حن الجذع و الجبال سبحت مع داود و نظائر هذا كثيرة و قد قال تعالى { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ }الإسراء٤٤ [1]

الله قد أخبر فى كتابه انه يجعل فى هذه المصنوعات آيات

قال تعالى { وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ{٣٣} وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ{٣٤} لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٣٥}يس٣٣ـ٣٥ والله قد أخبر فى كتابه انه يجعل فى هذه المصنوعات آيات والآية مثل العلامة والدلالة فدل بها خلقه وجعلها آيات تكون تبصره وذكرى لكل عبد منيب كما قال {وَإِلَـهُكُمْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٢٥ـ ٢٦

إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ {١٦٣} البقرة الي قوله { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {١٦٤} البقرة ١٦٤ وتارة يسميها نفسها آية كما قال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا }يس٣٣ وهذا الذى ذكره الله فى كتابه هو الحق[١]

التسبيح يقتضي إثبات صفات الكمال لله

قال تعالى{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}يس٣٦ والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التى يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده[٢]

النفع الذى يخلقه الله فى الأرض من الإنبات

النفع الذى يخلقه الله فى الأرض من الإنبات كما قال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ }يس٣٦[٣]

ليس فى الوجود شيء واحد يستقل بفعل شيء اذا شاء الا الله وحده

قال تعالى{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}يس٣٦ و أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير وأحاط بكل شيءعلما وكل شيء أحصاه فى امام مبين ويتضمن هذا الأصل من اثبات علم الله وقدرته ومشيئته ووحدانتيه وربوبيته وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه ما هو من أصول الايمان ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التى يخلق بها المسببات كما قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }الأعراف٥٧ وقال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة١٦ وقال تعالى { يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٧٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٢٦

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٢٩٤

وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً } البقرة٢٦ فأخبر أنه يفعل بالاسباب ومن قال إنه يفعل عندها لا بها فقد خالف ما جاء به القرآن وأنكر ما خلقه الله من القوى والطبائع وهو شبيه بإنكار ما خلقه الله من القوى التى فى الحيوان التى يفعل الحيوان بها مثل قدرة العبد كما أن من جعلها هى المبدعة لذلك فقد أشرك بالله وأضاف فعله الى غيره وذلك أنه ما من سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر الى سبب آخر فى حصول مسببه ولابد من مانع يمنع مقتضاه اذا لم يدفعه الله عنه فليس فى الوجود شيء واحد يستقل بفعل شيء اذا شاء الا الله وحده قال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ }يس٣٦ وقال تعالى {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }الذاريات٤٩ أى فتعلمون أن خالق الازواج واحد ولهذا من قال ان الله لا يصدر عنه الا واحد لأن الواحد لا يصدر عنه الا واحد كان جاهلا فإنه ليس فى الوجود واحد صدر عنه وحده شيء لا واحد ولا اثنان الا الله الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون فالنار التى خلق الله فيها حرارة لا يحصل الاحراق الا بها وبمحل يقبل الاحتراق فاذا وقعت على السمندل والياقوت ونحوهما لم تحرقهما وقد يطلى الجسم بما يمنع احراقه والشمس التى يكون عنها الشعاع لابد من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه فاذا حصل حاجز من سحاب أو سقف لم يحصل الشعاع تحته وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع والمقصود هنا أنه لابد من الايمان بالقدر فإن الايمان بالقدر من تمام التوحيد كما قال ابن عباس هو نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ومن وحد الله وكذب بالقدر نقص توحيده ولابد من الايمان بالشرع وهو الايمان بالأمر والنهى والوعد والوعيد كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه[1]

لا يصدر فى العالم العلوي والسفلى أثر إلا عن سببين

قال تعالى{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}يس٣٦ ولا يصدر في العالم العلوي والسفلي أثر إلا عن سببين فأكثر فالنار إذا أحرقت إنما تحرق بشرط قبول المحل لإحراقها فالاحتراق حاصل بسببين لا بسبب واحد وكذلك الشعاع وكذلك جميع الأمور قال الله تعالى {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }الذاريات٤٩ قال بعض العلماء تعلمون أن خالق الأزواج واحد وقال تعالى{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}يس٣٦ فليس في المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شيء ولا علة مستقلة بمعلولها من غير مشارك أصلا[2]

الخسوف والكسوف لهما أوقات مقدرة

الخسوف والكسوف لهما أوقات مقدرة كما لطلوع الهلال وقت مقدر وذلك ما أجرى الله عادته بالليل والنهار والشتاء والصيف وسائر ما يتبع جريان الشمس والقمر وذلك من آيات الله تعالى كما قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ }يونس٥ وقال تعالى {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ }الرحمن٥ وقال تعالى {فَالِقُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١١٣
[2] الصفدية ج: ١ ص: ٢١٧

الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }الأنعام٩٦ تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ }البقرة١٨٩ وقال تعالى {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ }التوبة٣٦ وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠
وكما أن العادة التى أجراها الله تعالى أن الهلال لا يستهل الا ليلة ثلاثين من الشهر أو ليلة احدى وثلاثين وان الشهر لا يكون الا ثلاثين أو تسعة وعشرين فمن ظن أن الشهر يكون أكثر من ذلك أو أقل فهو غالط فكذلك أجرى الله العادة أن الشمس لا تكسف الا وقت الاستسرار وأن القمر لا يخسف الا وقت الابدار ووقت إبداره هى الليالي البيض التى يستحب صيام أيامها ليلة الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فالقمر لا يخسف الا فى هذه الليالي والهلال يستسر أخر الشهر اما ليلة واما ليلتين كما يستسر ليلة تسع وعشرين وثلاثين والشمس لا تكسف الا وقت استسراره وللشمس والقمر ليالي معتادة من عرفها عرف الكسوف والخسوف كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال يطلع فى الليلة الفلانية أو التى قبلها لكن العلم بالعادة فى الهلال علم عام يشترك فيه جميع الناس وأما العلم بالعادة فى الكسوف والخسوف فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما وليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التى يكون كذبه فيها أعظم من صدقه فإن ذلك قول بلا علم ثابت وبناء على غير أصل صحيح وفى سنن أبى داود عن النبى انه قال من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد وفى صحيح مسلم عن النبى انه قال من أتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه لم يقبل الله صلاته أربعين يوما والكهان أعلم بما يقولونه من المنجمين فى الأحكام ومع هذا صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن اتيانهم و مسألتهم فكيف بالمنجم وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع عن هذا الجواب[1]

{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا }

وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ وقد ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه قال كنت في المسجد حين وجبت الشمس فقال يا أبا ذر تدري أين تذهب الشمس قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي الله عز وجل فتستأذن في الرجوع فليؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها ثم قرأ {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} يس ٣٨ فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستئذانها وكذلك قال أبو العالية وغيره قال أبو العالية ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حت

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٢٥٤-٢٥٦

يرجع إلى مطلعه ومعلوم أن الشمس لا تزال في الفلك كما اخبر الله تعالى بقوله وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون سورة الأنبياء ٣٣ فهي لا تزال تسبح في الفلك وهي تسجد لله وتستأذنه كل ليلة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فهي تسجد سجودا يناسبها وتخضع له وتخشع كما يخضع ويخشع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس[1]

وقال تعالى { لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ أي لا يتقدم عليه بحيث يكون بينهما انفصال بل كال منهما متصل بالآخر[2]

الذي جاءت به شريعتنا أكمل الامور لأنه وقت الشهر بأمر طبيعي ظاهر

وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ قال الله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ }البقرة١٨٩ فاخبر انها مواقيت للناس وهذا عام فى جميع أمورهم وخص الحج بالذكر تمييزا له ولان الحج تشهده الملائكة وغيرهم ولانه يكون في آخر شهور الحول فيكون علما على الحول كما ان الهلال علم على الشهر ولهذا يسمون الحول حجة فيقولون له سبعون حجة واقمنا حجج فجعل الله الاهلة مواقيت للناس فى الاحكام الثابتة بالشرع ابتداء او سببا من العبادة وللاحكام التى تثبت بشروط العبد فما ثبت من المؤقتات بشرع او شرط فالهلال ميقات له وهذا يدخل فيه الصيام والحج ومدة الايلاء والعدة وصوم الكفارة وهذه الخمسة فى القرآن قال الله تعالى {شَهْرُ رَمَضَانَ }البقرة١٨٥ وقال تعالى {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ }البقرة١٩٧ وقال تعالى {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ }البقرة٢٢٦ وقال تعالى { فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ }النساء٩٢ وكذلك قوله {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ }التوبة٢ وكذلك صوم النذر وغيره وكذلك الشروط من الاعمال المتعلقة بالثمن ودين السلم والزكاة والجزية والعقل والخيار والايمان واجل الصداق ونجوم الكتابة والصلح عن القصاص وسائر ما يؤجل من دين وعقد وغيرهما وقال تعالى {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ }يس٣٩ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ }يونس٥ فقوله {لِتَعْلَمُواْ }يونس٥ متعلق والله أعلم بقوله { وَقَدَّرَهُ }يونس٥ لا بجعل لان كون هذا ضياء وهذا نورا لا تأثير له فى معرفة عدد السنين والحساب وانما يؤثر فى ذلك انتقالهما من برج الى برج ولان الشمس لم يعلق لنا بها حساب شهر ولا سنة وإنما علق ذلك بالهلال كما دلت عليه تلك الاية ولانه قد قال {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ }التوبة٣٦ فاخبر ان الشهور معدودة اثنا عشر والشهر هلالي بالاضطرار فعلم ان كل واحد منها معروف بالهلال وقد بلغني أن الشرائع قبلنا ايضا انما علقت الاحكام بالاهلة وانما بدل من بدل من اتباعهم كما يفعله اليهود فى إجتماع القرصين وفى جعل بعض اعيادها بحساب السنة الشمسية وكما تفعله النصاري فى صومها حيث تراعي الاجتماع القريب من اول السنة الشمسية وتجعل سائر اعيادها دائرة على السنة الشمسية بحسب الحوادث التى كانت

---

[1] رسالة في قنوت الأشياء ج: ١ ص: ٣٦-٣٧

[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٨٥

للمسيح وكما يفعله الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين فى اصطلاحات لهم فان منهم من يعتبر بالسنة الشمسية فقط ولهم اصطلاحات فى عدد شهورها لانها وان كانت طبيعية فشهرها عددي وضعي ومنهم من يعتبر القمرية لكن يعتبر اجتماع القرصين وما جاءت به الشريعة هو اكمل الامور واحسنها وأبينها وأصحها وابعدها من الاضطراب وذلك أن الهلال امر مشهود مرئي بالابصار ومن اصح المعلومات ما شوهد بالابصار ولهذا سموه هلالا لان هذه المادة تدل على الظهور والبيان اما سمعا واما بصرا كما يقال اهل بالعمرة واهل بالذبيحة لغير الله اذا رفع صوته ويقال لوقع المطر الهلل ويقال استهل الجنين اذا خرج صارخا ويقال تهلل وجهه اذا استنار وأضاء وقيل أن أصله رفع الصوت ثم لما كانوا يرفعون اصواتهم عند رؤيته سموه هلالا ومنه قوله يهل بالفرقد ركبانها كما يهل الراكب المعتمر وتهلل الوجه مأخوذ من استنارة الهلال فالمقصود ان المواقيت حددت بأمر ظاهر بين يشترك فيه الناس ولا يشرك الهلال فى ذلك شيء فان اجتماع الشمس والقمر الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الهلال أمر خفي لا يعرف إلا بحساب ينفرد به بعض الناس مع تعب وتضييع زمان كثير واشتغال عما يعنى الناس وما لابد له منه وربما وقع فيه الغلط والاختلاف وكذلك كون الشمس حاذت البرج الفلانى أو الفلانى هذا أمر لا يدرك بالأبصار وإنما يدرك بالحساب الخفى الخاص المشكل الذى قد يغلط فيه وإنما يعلم ذلك بالإحساس تقريبا فانه إذا انصرم الشتاء ودخل الفصل الذى تسميه العرب الصيف ويسميه الناس الربيع كان وقت حصول الشمس فى نقطة الاعتدال الذى هو أول الحمل وكذلك مثله فى الخريف فالذى يدرك بالاحساس الشتاء والصيف وما بينهما من الاعتدالين تقريبا فأما حصولها فى برج بعد برج فلا يعرف إلا بحساب فيه كلفة وشغل عن غيره مع قلة جدواه فظهر أنه ليس للمواقيت حد ظاهر عام المعرفة إلا الهلال وقد إنقسمت عادات الامم في شهرهم وسنتهم القسمة العقلية وذلك ان كل واحد من الشهر والسنة اما ان يكونا عدديين او طبيعيين او الشهر طبيعيا والسنة عددية او بالعكس فالذين يعدونهما مثل من يجعل الشهر ثلاثين يوما والسنة اثني عشر شهرا والذين يجعلونهما طبيعيين مثل من يجعل الشهر قمريا والسنة شمسية ويلحق فى آخر الشهور الايام المتفاوتة بين السنتين فان السنة القمرية ثلاثمائة واربعة وخمسون يوما وبعض يوم خمس او سدس وانما يقال فيها ثلاثمائة وستون يوما جبرا للكسر في العادة عادة العرب فى تكميل ما ينقص من التاريخ فى اليوم والشهر والحول وأما الشمسية فثلاثمائة وخمسة وستون يوما وبعض يوم ربع يوم ولهذا كان التفاوت بينهما احد عشر يوما إلا قليلا تكون فى كل ثلاثة وثلاثين سنة وثلث سنة سنة ولهذا قال تعالى {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً }الكهف٢٥ قيل معناه ثلاثمائة سنة شمسية وازدادوا تسعا بحساب السنة القمرية ومراعاة هذين عادة كثير من الامم من اهل الكتابين بسبب تحريفهم واظنه كان عادة المجوس ايضا واما من يجعل السنة طبيعية والشهر عدديا فهذا حساب الروم والسريانيين والقبط ونحوهم من الصابئين والمشركين ممن يعد شهر كانون ونحوه عددا ويعتبر السنة الشمسية بسير الشمس فاما القسم الرابع فبأن يكون الشهر طبيعيا والسنة عددية فهو سنة المسلمين ومن وافقهم ثم الذين يجعلون السنة طبيعية لا يعتمدون على أمر ظاهر كما تقدم بل لابد من الحساب والعدد وكذلك الذين يجعلون الشهر طبيعيا ويعتمدون على الاجتماع لابد من العدد والحساب ثم ما يحسبونه أمر خفي ينفرد به القليل من الناس مع كلفة ومشقة وتعرض للخطأ فالذي جاءت به شريعتنا أكمل الامور لأنه وقت الشهر بأمر طبيعي ظاهر عام يدرك بالابصار فلا يضل احد عن دينه ولا يشغله مراعاته عن شيء من مصالحه ولا يدخل بسببه فيما لا يعنيه ولا يكون طريقا الى التلبيس فى دين الله كما يفعل بعض علماء اهل الملل بمللهم وأما الحول فلم يكن له حد ظاهر في السماء فكان لابد فيه من الحساب والعدد فكان عدد الشهور الالهلالية أظهر وأعم من ان يحسب بسير الشمس وتكون السنة

مطابقة للشهور ولان السنين اذا اجتمعت فلابد من عددها فى عادة جميع الامم اذ ليس للسنين اذا تعددت حد سماوي يعرف به عددها فكان عدد الشهور موافقا لعدد البروج جعلت السنة اثنى عشر شهرا بعدد البروج التى تكمل بدور الشمس فيها سنة شمسية فاذا دار القمر فيها كمل دورته السنوية وبهذا كله يتبين معنى قوله { وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ }يونس٥ فان عدد شهور السنة وعدد السنة بعد السنة انما اصله بتقدير القمر منازل وكذلك معرفة الحساب فان حساب بعض الشهور لما يقع فيه من الآجال ونحوها انما يكون بالهلال وكذلك قوله تعالى{ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ }البقرة١٨٩ فظهر بما ذكرناه انه بالهلال يكون توقيت الشهر والسنة وأنه ليس شيء يقوم مقام الهلال البتة لظهوره وظهور العدد المبنى عليه وتيسر ذلك وعمومه وغير ذلك من المصالح الخالية عن المفاسد ومن عرف ما دخل على أهل الكتابين والصابئين والمجوس وغيرهم فى اعيادهم وعباداتهم وتواريخهم وغير ذلك من امورهم من الاضطراب والحرج وغير ذلك من المفاسد ازداد شكره على نعمة الاسلام مع اتفاقهم أن الانبياء لم يشرعوا شيئا من ذلك وانما دخل عليهم ذلك من جهة المتفلسفة الصابئة الذين أدخلوا فى ملتهم وشرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به الله فلهذا ذكرنا ما ذكرناه حفظا لهذا الدين عن ادخال المفسدين فان هذا مما يخاف تغييره فانه قد كانت العرب فى جاهليتها قد غيرت ملة ابراهيم بالنسيء الذي ابتدعته فزادت به فى السنة شهرا جعلتها كبيسا لاغراض لهم وغيروا به ميقات الحج والاشهر الحرم حتى كانوا يحجون تارة في المحرم وتارة في صفر حتى يعود الحج إلى ذى الحجة حتى بعث الله المقيم لملة ابراهيم فوافى حجه حجة الوداع وقد استدار الزمان كما كان ووقعت حجته فى ذي الحجة فقال فى خطبته المشهورة فى الصحيحين وغيرهما ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها اربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان وكان قبل ذلك الحج لا يقع فى ذي الحجة حتى حجة ابى بكر سنة تسع كان فى ذى القعدة وهذا من أسباب تأخير النبى الحج وانزل الله تعالى {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}التوبة٣٦ فأخبر الله ان هذا هو الدين القيم ليبين ان ما سواه من امر النسيء وغيره من عادات الامم ليس قيما لما يدخله من الانحراف والاضطراب ونظير الشهر والسنة اليوم والاسبوع فان اليوم طبيعي من طلوع الشمس الى غروبها واما الاسبوع فهو عددي من أجل الايام الستة التى خلق الله فيها السموات والارض ثم استوى على العرش فوقع التعديل بين الشمس والقمر باليوم والاسبوع بسير الشمس والشهر والسنة بسير القمر وبهما يتم الحساب وبهذا قد يتوجه قوله { لِتَعْلَمُواْ }يونس٥ الى { جَعَلَ }يونس٥ فيكون جعل الشمس والقمر لهذا كله فأما قوله تعالى { وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً }الأنعام٩٦ وقوله {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ }الرحمن٥ فقد قيل هو من الحساب وقيل بحسبان كحسبان الرحا وهو دوران الفلك فان هذا مما لا خلاف فيه بل قد دل الكتاب والسنة وأجمع علماء الامة على مثل ما عليه اهل المعرفة من اهل الحساب من ان الافلاك مستديرة لا مسطحة[1]

تقدير القمر منازل هو الذي يقتضى علم عدد السنين والحساب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ١٣٤-١٤٢

وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ قوله {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ }يونس٥ وقوله {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً }الأنعام٩٦ وقوله {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ }الرحمن٥ وقوله {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ }يس٣٩ وقوله {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ }البقرة١٨٩ دليل على توقيت ما فيها من التوقيت للسنين والحساب فقوله { لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ }يونس٥ أن علق بقوله { وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ }يونس٥ كان الحكم مختصا بالقمر وإن اعيد إلى أول الكلام تعلق بهما ويشهد للأول قوله فى الأهلة فإنه موافق لذلك ولأن كون الشمس ضياء والقمر نورا لا يوجب علم عدد السنين والحساب بخلاف تقدير القمر منازل فإنه هو الذي يقتضى علم عدد السنين والحساب ولم يذكر إنتقال الشمس فى البروج ويؤيد ذلك قوله {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ }التوبة٣٦ الآية فإنه نص على أن السنة هلالية وقوله {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ }البقرة١٩٧ يؤيد ذلك لكن يدل على الآخر قوله {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ }الإسراء١٢ وهذا والله أعلم لمعنى تظهر به حكمة ما فى الكتاب وما جاءت به الشريعة من اعتبار الشهر والعام الهلالي دون الشمسي ان كل ماحد من الشهر والعام ينقسم في إصطلاح الأمم إلى عددي وطبيعي فأما الشهر الهلالي فهو طبيعي وسنته عددية وأما الشهر الشمسي فعددي وسنته طبيعة فأما جعل شهرنا هلاليا فحكمته ظاهرة لأنه طبيعي وإنما علق بالهلال دون الإجتماع لأنه أمر مضبوط بالحس لا يدخله خلل ولا يفتقر إلى حساب بخلاف الإجتماع فإنه أمر خفي يفتقر إلى حساب وبخلاف الشهر الشمسي لو ضبط وأما السنة الشمسية فإنها وإن كانت طبيعية فهي من جنس الإجتماع ليس أمرا ظاهرا للحس بل يفتقر إلى حساب سير الشمس فى المنازل وإنما الذي يدركه الحس تقريب ذلك فإن انقضاء الشتاء ودخول الفصل الذي تسميه العرب الصيف ويسميه غيرها الربيع أمر ظاهر بخلاف محاذاة الشمس لجزء من أجزاء الفلك يسمى برج كذا أو محاذاتها لاحدى نقطتى الرأس أو الذنب فإنه يفتقر إلى حساب ولما كانت الروج اثنى عشر فمتى تكرر الهلالي اثنى عشر فقد انتقل فيها كلها فصار ذلك سنة كاملة تعلقت به أحكام ديننا من المؤقتات شرعا أو شرطا إما بأصل الشرع كالصيام والحج وإما بسبب من العبد كالعدة ومدة الإيلاء وصوم الكفارة والنذر وإما بالشرط كالأجل في الدين والخيار والإيمان وغير ذلك[1]

كل ما علم بالعقل الصريح فلا يوجد عن الرسول إلا ما يوافقه ويصدقه

وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٥٨-٦٠

أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ وكذلك ما يعلم بالمشاهدة والحساب الصحيح من أحوال الفلك علم صحيح لا يدفع والافلاك مستديرة ليست مضلعة ومن قال إنها مضلعة أو جوز ذلك من أهل الكلام فهو وأمثاله ممن يرد على الفلاسفة وغيرهم ما قالوه من علم صحيح معقول مع كونه موافقا للمشروع وهذا من بدع اهل الكلام الذي ذمه السلف وعابوه فانهم ناظروا الفلاسفة في العلم الالهي في مسئلة حدوث العالم وإثبات الصانع ومسائل المعاد والنبوات وغير ذلك بطرق فاسدة حائدة من مسلك الشرع والعقل وكان ذلك من أسباب ضلال كثير من الناس حيث ظنوا ان ما يقوله هؤلاء المبتدعون هو الشرع المأخوذ عن الرسول وليس الامر كذلك بل كل ما علم بالعقل الصريح فلا يوجد عن الرسول إلا ما يوافقه ويصدقه وما نحن فيه من كرية الافلاك واستدارتها من هذا الباب بل هذا مما أجمع عليه سلف الامة من الصحابة والتابعين لا يعرف بينهم نزاع في ان الفلك مستدير وقد حكى إجماع علماء المسلمين على ذلك غير واحد منهم ابو الحسين بن المنادى الامام الذي له أربعمائة مصنف وكان من الطبقة الثانية من اصحاب احمد ومنهم ابو محمد بن حزم ومنهم ابو الفرج بن الجوزي والاثار بذلك معروفة ثابتة عن السلف كما دل على ذلك الكتاب والسنة وقد ذكرنا طرفا من ذلك في جواب مسئلة سئلنا عنها في هذا الباب فذكرنا دلالة الكتاب والسنة على ذلك موافقا لما علم بالحساب العقلي وقد قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ وقال تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ وقد ذكر الامام ابو محمد عبد الرحمن بن ابي حاتم في تفسيره ثنا ابى يعنى الامام ابا حاتم الرازي ثنا نصر بن علي حدثني ابي عن شعبة بن الحجاج عن الاعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ قال في فلكة مثل فلكة المغزل وذكر عن احمد الزبيري عن شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله{ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ قال يدورون في أبواب السماء كما يدور المغزل في الفلكة وقال ثنا الحسن بن الحسن ثنا إبراهيم بن عبدالله بن الهروى ثنا حجاج عن ابي جريج اخبرني عبدالله بن كثير انه سمع مجاهدا يقول وكل في فلك يسبحون قال النجوم والشمس والقمر فلكة كفلكة المغزل وقال مثل ذلك الحسبان يعنى مجاهد حسبان الرحى وهو سفودها القائم الذي يدور عليه والحسبان في اللغة سهام قصار الواحدة حسبانة وكان مجاهد يفسر قوله {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ }الرحمن٥ الرحمن بهذا وقال غيره هو من الحساب قيل هو مصدر وقيل جمع حساب كشهاب وشهبان قال مجاهد ولا يدور المغزل إلا بالفلكه ولا تدور الفلكة إلا بالمغزل ولا يدور الحسبان إلا بالرحى ولا يدور الرحى إلا بالحسبان قال فكذلك النجوم والشمس والقمر هي في فلك لا يدمن إلا به ولا يدوم إلا بهن قال فنقر بأصبعه قال فقال مجاهد يدمن كذلك كما نقر قال فالحسبان والفلك يصيران الى شئ واحد غير ان الحسبان في الرحى والفلك في المغزل كل ذلك عن مجاهد قلت قوله لا يدوم إلا به أي لا يدور إلا به ومنه الدوامة بالضم والتشديد وهي فلكة يرميها الصبي بخيط فتدوم على الارض أي تدور ومنه تدويم الطير وهو تحليقه وهو دورانه في طيرانه ليرتفع الى السماء وقوله نقر بأصبعه يعنى نقر بها من الارض وأدارها ليشبه بذلك دوران الفلك وقال ابن ابي حاتم قرى على يونس بن عبد الاعلى ثنا ابن وهب ثنا السري ابن يحيى قال سأل رجل الحسن البصري عن قوله { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ قال يعنى استدارتهم وقال بندة ثنا أبي ثنا عبيد الله بن عائشة ثنا عبدالواحد بن زياد ثنا ابو روق سمعت الضحاك في قوله {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠قال يدور ويذهب ثنا ابي ثنا مسروق بن المرزبان ثنا يحي بن ابي زائدة ثنا ورقاء عن ابن ابي نجيح عن مجاهد كل في فلك يسبحون قال الفلك كحديدة الرحى يعنى قطب كحديدة الرحى وهو قطب الرحى وهو السفود القائم الذي يسمى

أيضا حسبانا   ثنا بن على الحسين بن حنيد ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا مروان بن معاوية عن جويبر عن الضحاك في فلك يسبحون قال الفلك السرعة والجري في الاستدارة ويسبحون يعملون يريد أن لفظ الفلك يدل على الاستدارة وعلى سرعة الحركة كما في دوران فلكة المغزل ودوران الرحى   وقال ثنا أبي ثنا أبو صالح حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله في فلك يقول دوران وقوله يسبحون يعني يجرون   وعن إياس بن معاوية قال السماء على الأرض مثل القبة   وقد بسط القول في ذلك بدلائله من الكتاب والسنة في غير هذا الموضع ولفظ الفلك في لغة العرب يدل على الاستدارة قال الجوهري فلكة المغزل سميت بذلك لاستدارتها والفلكة قطعة من الأرض أو الرمل تستدير وترتفع على ما حولها والجمع فلك وقال ومنه قيل فلك ثدى الجارية تفليكا وتفلك استدار قلت والسباحة تتضمن الجري بسرعة كما ذكر ذلك أهل اللغة[1]

قد ثبت بالكتاب والسنة ان الافلاك مستديرة

وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ وقد ثبت بالكتاب والسنة واجماع علماء الامة ان الافلاك مستديرة قال الله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ }فصلت٣٧ وقال {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ وقال تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠   قال إبن عباس فى فلكة مثل فلكة المغزل وهكذا هو فى لسان العرب الفلك الشيء المستدير ومنه يقال تفلك ثدى الجارية اذا استدار قال تعالى {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ }الزمر٥ والتكوير هو التدوير ومنه قيل كار العمامة وكورها اذا ادارها ومنه قيل للكرة كرة وهى الجسم المستدير ولهذا يقال للأفلاك كروية الشكل لأن أصل الكرة كورة تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت الفا وكورت الكارة اذا دورتها ومنه الحديث   ان الشمس والقمر يكوران يوم القيامة كانهما ثوران فى نار جهنم   وقال تعالى {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ }الرحمن٥ مثل حسبان الرحا   وقال {مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ }الملك٣ وهذا انما يكون فيما يستدير من اشكال الاجسام دون المضلعات من المثلث او المربع او غيرهما فانه يتفاوت لان زواياه مخالفة لقوائمه والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحى ليس بعضه مخالفا لبعض   وقال النبى للاعرابى الذى قال انا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فقال   ويحك ان الله لا يستشفع به على احد من خلقه ان شأنه اعظم من ذلك ان عرشه على سمواته هكذا   وقال بيده مثل القبة   وانه ليئط به اطيط الرحل الجديد براكبه   رواه ابو داود وغيره من حديث جبير بن مطعم عن النبى وفى الصحيحين عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال   اذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانها اعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفها عرش الرحمن   فقد أخبر ان الفردوس هى الأعلى والأوسط وهذا لا يكون الا فى الصورة المستديرة فاما المربع ونحوه فليس أوسطه أعلاه بل هو متساو   وأما إجماع العلماء فقال اياس بن معاوية الامام المشهور قاضى البصرة من التابعين

---

[1] الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٢٦١-٢٦٤

السماء على الأرض مثل القبة وقال الامام ابو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي من اعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار فى فنون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من اصحاب احمد لا خلاف بين العلماء ان السماء على مثال الكرة وانها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين احدهما فى ناحية الشمال والآخر فى ناحية الجنوب قال ويدل على ذلك ان الكواكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلا على ترتيب واحد فى حركاتها ومقادير أجزائها الى ان تتوسط السماء ثم تنحدر على ذلك الترتيب كأنها ثابتة فى كرة تديرها جميعها دورا واحدا قال وكذلك أجمعوا على ان الارض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة قال ويدل عليه ان الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الارض فى وقت واحد بل على المشرق قبل المغرب قال فكرة الارض مثبتة فى وسط كرة السماء كالنقطة فى الدائرة يدل على ذلك ان جرم كل كوكب يرى فى جميع نواحى السماء على قدر واحد فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والارض من جميع الجهات بقدر واحد فاضطرار ان تكون الارض وسط السماء[1]

الأرض قد اتفقوا على أنها كرية الشكل

وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ أعلم أن الأرض قد اتفقوا على أنها كرية الشكل وهى فى الماء المحيط بأكثرها اذ اليابس السدس وزيادة بقليل والماء أيضا مقبب من كل جانب للأرض والماء الذى فوقها بينه وبين السماء كما بيننا وبينها مما يلى رؤوسنا وليس تحت وجه الأرض الا وسطها ونهاية التحت المركز فلا يكون لنا جهة بينة الا جهتان العلو والسفل وانما تختلف الجهات باختلاف الانسان فعلو الأرض وجهها من كل جانب وأسفلها ما تحت وجهها ونهاية المركز هو الذى يسمى محط الأثقال فمن وجه الأرض والماء من كل وجهة الى المركز يكون هبوطا ومنه الى وجهها صعودا وإذا كانت سماء الدنيا فوق الأرض محيطة بها فالثانية كرية وكذا الباقى والكرسى فوق الافلاك كلها والعرش فوق الكرسى ونسبة الأفلاك وما فيها بالنسبة الى الكرسى كحلقة فى قلاة والجملة بالنسبة الى العرش كحلقة فى فلاة والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والاجماع فان لفظ الفلك يدل على الاستدارة ومنه قوله تعالى { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ قال ابن عباس فى فلكة كفلكة المغزل ومنه قولهم تفلك ثدى الجارية اذا استدار وأهل الهيئة والحساب متفقون على ذلك[2]

ولفظ الفلك يدل على الاستدارة مطلقا كقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ وقوله تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص:١٩٣- ١٩٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٥٠

اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ يقتضى أنها فى فلك مستدير مطلقا كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فى فلكة مثل فلكة المغزل[1]

من الادلة على ان السموات مستديرة

السموات مستديرة عند علماء المسلمين وقد حكى اجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء وأئمة الإسلام مثل أبى الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى أحد الأعيان الكبار من الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد وله نحو أربعمائه مصنف وحكى الاجماع على ذلك الامام أبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزى وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وبسطوا القول فى ذلك بالدلائل السمعية وان كان قد أقيم على ذلك أيضا دلائل حسابية ولا أعلم فى علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك الا فرقة يسيرة من أهل الجدل لما ناظروا المنجمين فأفسدوا عليهم فاسد مذهبهم فى الاحول والتأثير خلطوا الكلام معهم بالمناظرة فى الحساب وقالوا على سبيل التجويز يجوز أن تكون مربعة أو مسدسة أو غير ذلك ولم ينفوا أن تكون مستديرة لكن جوزوا ضد ذلك وما علمت من قال أنها غير مستديرة وجزم بذلك الا من لا يؤيه له من الجهال ومن الادلة على ذلك قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ وقال تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ قال ابن عباس وغيره من السلف فى فلكه مثل فلكه المغزل وهذا صريح بالاستدارة والدوران وأصل ذلك أن الفلك فى اللغة هو الشيء المستدير يقال تفلك ثدى الجارية اذا استدار ويقال لفلكه المغزل المستديرة فلكة لاستدارتها فقد اتفق أهل التفسير واللغة على أن الفلك هو المستدير والمعرفة لمعانى كتاب الله انما تؤخذ من هذين الطريقين من اهل التفسير الموثوق بهم من السلف ومن اللغة التى نزل القرآن بها وهى لغة العرب وقال تعالى { يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ }الزمر٥ قالوا و التكوير التدوير يقال كورت العمامة وكورتها اذا دورتها ويقال للمستدير كارة واصله كورة تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت الفا ويقال ايضا كرة واصله كورة وانما حذفت عين الكلمة كما قيل فى ثبة وقلة والليل والنهار وسائر أحوال الزمان تابعة للحركة فان الزمان مقدار للحركة والحركة قائمة بالجسم المتحرك فاذا كان الزمان التابع للحركة التابعة للجسم موصوفا بالاستدارة كان الجسم أولى بالاستدارة وقال تعالى { مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ }الملك٣ وليس فى السماء الا اجسام ما هو متشابه فأما التثليث والتربيع والتخميس والتسديس وغير ذلك ففيها تفاوت واختلاف بالزوايا والاضلاع لا خلاف فيه ولا تفاوت اذ الاستدارة التى هى الجوانب وفى الحديث المشهور فى سنن ابى داود وغيره عن جبير بن مطعم أن اعرابيا جاء الى النبى فقال يا رسول الله جهدت الأنفس وهلك المال وجاع العيال فاستسق لنا فانا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله فسبح رسول الله حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال ويحك ان الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ان عرشه على سماواته هكذا وقال بيده مثل القبة وأنه يئط به أطيط الرحل الجديد براكبه فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم ان العرش على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٥٥٧

السماوات مثل القبة وهذا اشارة الى العلو والادارة وفى الصحيحين عن النبى قال اذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفه عرش الرحمن والاوسط لا يكون أوسط الا فى المستدير وقد قال اياس بن معاوية السماء على الارض مثل القبة والآثار فى ذلك لا تحتملها الفتوى وانما كتبت هذا على عجل والحس مع العقل يدل على ذلك فانه مع تأمل دوران الكواكب القريبة من القطب فى مدار ضيق حول القطب الشمالى ثم دوران الكواكب المتوسطة فى السماء فى مدار واسع وكيف يكون فى أول الليل وفى آخره يعلم ذلك وكذلك من رأى حال الشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها فى الاوقات الثلاثة على بعد واحد وشكل واحد ممن يكون على ظهر الارض علم أنها تجرى فى فلك مستدير وأنه لو كان مربعا لكانت وقت الاستواء أقرب الى من تحاذيه منها وقت الطلوع والغروب ودلائل هذا متعددة وأما من ادعى ما يخالف الكتاب والسنة فهو مبطل فى ذلك وان زعم ان معه دليلا حسابيا وهذا كثير فيمن ينظر فى الفلك وأحواله كدعوى جماعة من الجهال أنهم يغلب وقت طلوع الهلال لمعرفة وقت ظهوره بعد استسراره بمعرفة بعده عن الشمس بعد مفارقتها وقت الغروب وضبطهم قوس الرؤية وهو الخط المعروض مستديرا قطعة من دائرة وقت الاستهلال فان هذه دعوى باطلة اتفق علماء الشريعة الاعلام على تحريم العمل بذلك فى الهلال واتفق أهل الحساب العقلاء على أن معرفة ظهور الهلال لا يضبط بالحساب ضبطا تاما قط ولذلك لم يتكلم فيه حذاق الحساب بل أنكروه وانما تكلم فيه قوم من متأخريهم تقريبا وذلك ضلال عن دين الله وتغيير له شبيه بضلال اليهود والنصارى عما أمروا به من الهلال الى غاية الشمس وقت اجتماع القرصين الذى هو الاستسرار وليس بالشهور الهلالية ونحو ذلك و النسىء الذى كان فى العرب الذى هو زيادة فى الكفر الذى يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ما ذكر ذلك علماء الحديث والسير والتفسير وغيرهم وقد ثبت فى الصحيحين عن عمر عن النبى أنه قال أنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فمن أخذ علم الهلال الذى جعله الله مواقيت للناس والحج بالكتاب والحساب فهو فاسد العقل والدين والحساب اذا صح حسابه اكثر ما يمكنه ضبط المسافة التى بين الشمس والقمر وقت الغروب مثلا وهو الذى يسمى بعد القمر عن الشمس لكن كونه يرى لا محالة او لا يرى بحال لا يعلم بذلك فان الرؤية تختلف بعلو الأرض وانخفاضها وصفاء الجو وكدره وكذلك البصر وحدته ودوام التحديث وقصره وتصويب التحديق وخطأه وكثرة المترائين وقلتهم وغلظ الهلال وقد لا يرى وقت فيزداد نورا ويخلص من الشعاع المانع من رؤيته فيرى حينئ وكذلك لم يتفقوا على قوس واحد لرؤيته بل اضطربوا فيه كثيرا ولا أصل له وانما مرجعه الى العادة وليس لها ضابط حسابى فمنهم من ينقصه عن عشر درجات ومنهم من يزيد وفى الزيادة والنقص أقوال متقابلة من جنس أقوال من رام ضبط عدد التواتر الموجب لحصول العلم بالمخبر وليس له ضابط عددى اذ للعلم اسباب وراء العدد كما للرؤية وهذا كله اذا فسر الهلال بما طلع فى السماء وجعل وقت الغيم المطبق شكا اما اذا فسر الهلال بما استهله الناس وادركوه وظهر لهم واظهروا الصوت به اندفع هذا بكل تقدير والخلاف فى ذلك مشهور بين العلماء فى مذهب الامام أحمد وغيره والثانى قول الشافعى وغيره والله أعلم اما قول الأفلاك هل هى السموات أو غيرها ففى ذلك قولان معروفان للناس لكن الذين قالوا أن هذا هو هذا احتجوا بقوله تعالى {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً{١٥} وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً{١٦}نوح١٥-١٦ قالوا فاخبر الله أن القمر فى السموات وقد قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ وقال تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ فأخبر فى الآيتين أن القمر فى

الفلك كما اخبر أنه فى السموات ولأن الله أخبر انا نرى السموات بقوله {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ {٣} ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ {٤}الملك٣ ـ٤ وقال {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ }ق٦ وأمثال ذلك من النصوص الدالة على أن السماء مشاهدة والمشاهد هو الفلك فدل على أن أحدهما هو الآخر وأما قول هل الشمس والقمر تحركان بدون الفلك ام حركتهما بحركة الفلك ففيه نزاع ايضا لكن جمهور الناس على أن حركتهما بحركة الفلك وأما قوله تعالى { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ فلا يمنع أن يكون ما ذكره من أنهم يسبحون تابعا لحركة الفلك كما فى الليل والنهار فان تعاقب الليل والنهار تابع لحركة غيرهما وقوله { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ يتناول الليل والنهار والشمس والقمر كما بين ذلك فى سورة الانبياء وكذلك فى سورة يس { وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠} يس٤٠ فتناول قوله { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ ما تقدم الليل والنهار والشمس كما ذكر فى سورة الانبياء واذا كان أخبر عن الليل والنهار بما أخبر به من انهما يسبحان وذلك تابع لحركة غيرهما مثل ذلك ما اخبر به من انهما يسبحان وذلك تابع لحركة غيرهما مثل ذلك ما أخبر به من أن الشمس والقمر يسبحان تبعا للفلك وعلى ذلك أدلة ليس هذا موضع بسطها وليست السموات متصلة بالأرض لا على جبل قاف ولا غيره بل الافلاك مستديرة كما أخبر الله ورسوله وكما ذكر ذلك علماء المسلمين وغيرهم فذكر أبو الحسين بن المنادى وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزى وغيرهم اجماع المسلمين على أن الافلاك مستديرة وقال ابن عباس فى قوله { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ قال فى فلكه مثل فلكه المغزل والفلك فى لغة العرب الشيء المستدير يقال تفلك ثدى الجارية اذا استدار وقد خلق الله سبع أرضين بعضهن فوق بعض كما ثبت فى الصحاح عن النبى أنه قال من ظلم شبرا من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة وقد ذكر ابو بكر الانبارى الاجماع على ذلك واراد به إجماع أهل الحديث والسنة الليل والنهار الذى هو حاصل بالشمس هو تبع للسموات والارض لم يخلق هذا الليل وهذا النهار قبل هذه السموات والارض بل خلق هذا الليل وهذا النهار تبعا لهذه السموات والارض فان الله اذا اطلع الشمس حصل النهار واذا غابت حصل الليل فالنهار بظهورها والليل بغروبها فكيف يكون هذا الليل وهذا النهار قبل الشمس والشمس والقمر مخلوقان مع السموات والأرض وقد قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ وقال تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ قال ابن عباس وغيره من السلف فى فلكة مثل فلكة المغزل فقد أخبر تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر فى الفلك و الفلك هو السموات عند أكثر العلماء بدليل أن الله ذكر فى هاتين الآيتين ان الشمس والقمر فى الفلك وقال فى موضع آخر {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً{١٥} وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً{١٦} نوح ١٥ـ١٦ فأخبر أنه جعل الشمس والقمر فى السموات وقال تعالى {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ }الأنعام١ بين أنه خلق السموات والأرض وأنه خلق الظلمات والنور لأن الجعل هو التصيير يقال جعل كذا اذا صيره فذكر أنه خلق السموات والأرض وأنه جعل الظلمات والنور لأن الظلمات والنور مجعولة من الشمس والقمر المخلوقة فى السموات وليس الظلمات والنور والليل والنهار جسما قائما بنفسه ولكنه صفة وعرض قائم بغيره فالنور هو شعاع الشمس وضوءها الذى ينشره الله

فى الهواء وعلى الأرض وأما الظلمة فى الليل فقد قيل هى كذلك وقيل هى أمر وجودى فهذا الليل و هذا النهار اللذان يختلفان علينا اللذان يولج الله أحدهما فى الآخر فيولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخلف أحدهما الآخر يتعاقبان كما قال تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ }آل عمران١٩٠ وقال تعالى { لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ{٤٠} يس٤٠ بين سبحانه أنه جعل لكل شيء قدرا واحدا لا يتعداه فالشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر وتلحقه بل لها مجرى قدره الله لها وللقمر مجرى قدره الله له كما قال تعالى }وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} يس ٣٧-٣٩ ثم قال { لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ {٤٠} يس ٤٠ أى لا يفوته ويتقدم امامه حتى يكون بينهما برزخ بل هو متصل به لا هذا ينفصل عن هذا ولا هذا ينفصل عن هذا { وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠} يس ٤٠ فالمقصود أن هذا الليل وهذا النهار جعلهما الله تبعا لهذه السموات والارض ولكن كان قبل ان يخلق الله هذه السموات وهذه الارض وهذا النهار كان العرش على الماء كما قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء ل} هود٧ وخلق الله من بخار ذلك الماء هذه السموات وهو الدخان المذكور فى قوله تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ {١١} فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ {١٢}فصلت١١ -١٢ وذلك لما كان الماء غامرا لتربة الارض وكانت الريح تهب على ذلك الماء فخلق الله هذه السموات والأرض فى ستة ايام ثم استوى على العرش فتلك الايام التى خلق الله تعالى فيها هذه وطلوع الشمس وزوالها وغروبها يكون بالمشرق قبل أن يكون بالمغرب فتطلع الشمس وتزول وتغرب على ارض الهند والصين والخط قبل أن يكون بأرض المغرب ويكون ذلك بأرض العراق قبل أن يكون بأرض الشام ويكون بأرض الشام قبل أن يكون بمصر وكل أهل بلد لهم حكم طلوعهم وزوالهم وغروبهم فاذا طلع الفجر ببلد دخل وقت الفجر ووجبت الصلاة والصوم عندهم وان لم يكن عند آخرين لكن يتفاوت ذلك تفاوتا يسيرا بين البلاد المتقاربة واما من كان فى أقصى المشرق وأقصى المغرب فيتفاوت بينهما تفاوتا كثيرا نحو نصف يوم كامل والله سبحانه قد اخبر بأن الشمس والقمر والليل والنهار كل ذلك يسبح فى الفلك فقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ وقال تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }يس٤٠ و الفلك هو المستدير كما ذكر ذلك من ذكره من الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء المسلمين والمستدير يظهر شيئا بعد شيء فيراه القريب منه قبل البعيد عنه والله أعلم[١]

فمن المعلوم بإتفاق من يعلم هذا ان الافلاك مستديرة كرية الشكل وان الجهة العليا هى جهة المحيط وهى المحدب وان الجهة السفلى هو المركز وليس للأفلاك الا جهتان العلو والسفل فقط وأما الجهات الست فهى للحيوان فان له ست جوانب يؤم جهة فتكون امامه ويخلف اخرى فتكون خلفه وجهة تحاذى يمينه وجهة تحاذى شماله وجهة تحاذى رأسه وجهة تحاذى رجليه وليس لهذه

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٥٨٧-٥٦٧

الجهات الست فى نفسها صفة لازمة بل هى بحسب النسبة والاضافة فيكون يمين هذا ما يكون شمال هذا ويكون امام هذا ما يكون خلف هذا ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا لكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير فالمحيط هو العلو والمركز هو السفل مع أن وجه الارض التى وضعها الله للأنام وارساها بالجبال هو الذى عليه الناس والبهائم والشجر والنبات والجبال والأنهار الجارية فأما الناحية الأخرى من الأرض فالبحر محيط بها وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم ولو قدر أن هناك أحدا لكان على ظهر الأرض ولم يكن من فى هذه الجهة تحت من فى هذه الجهة ولا من فى هذه تحت من فى هذه كما أن الافلاك محيطة بالمركز وليس أحد جانبى الفلك تحت الآخر ولا القطب الشمالى تحت الجنوبى ولا بالعكس وان كان الشمالي هو الظاهر لنا فوق الأرض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة وهو الذى يسمى عرض البلد فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها وجوانب الفلك المستديرة ليس بعضها فوق بعض ولا تحته فكذلك من يكون على الأرض من الحيوان والنبات والأثقال لا يقال أنه تحت أولئك وانما هذا خيال يتخيله الانسان وهو تحت اضافى كما لو كانت نملة تمشى تحت سقف فالسقف فوقها وان كانت رجلاها تحاذيه وكذلك من علق منكوسا فانه تحت السماء وان كانت رجلاه تلى السماء وكذلك يتوهم الانسان اذا كان فى أحد جانبى الأرض أو الفلك ان الجانب الآخر تحته وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول ان الأفلاك مستديرة واستدارة الافلاك كما أنه قول أهل الهيئة والحساب فهو الذى عليه علماء المسلمين كما ذكره ابو الحسن بن المنادى وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزى وغيرهم أنه متفق عليه بين علماء المسلمين وقد قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ قال ابن عباس فلكة مثل فلكة المغزل و الفلك فى اللغة هو المستدير ومنه قولهم تفلك ثدى الجارية اذا استدار وكل من يعلم أن الأفلاك مستديرة يعلم أن المحيط هو العالى على المركز من كل جانب ومن توهم أن من يكون فى الفلك من ناحية يكون تحته من فى الفلك من الناحية الاخرى فى نفس الأمر فهو متوهم عنده[1]

اثبت الادلة على نفس الكعبة القطبان الشمال و الجنوبي

وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ قال الله تعالى {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}الأنعام٩٧ و قال تعالى {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ }النحل١٦ و قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة و الطريق في رواية عنه تعلموا من النجوم ما تهتدون في بركم و بحركم ثم امسكوا رواه حرب و عن علي رضي الله عنه قال ايها الناس اياكم و تعلم النجوم الا ما تهتدون بها في ظلمات البر و البحر رواه أبو حفص و لذلك استحسن احمد معرفة منازل القمر و ان يتعلم بها كم

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٥٦٥

مضى من الليل و كم بقي و ذكر أنه تعلمها من اهل مكة و النجوم اقسام احداها منازل القمر الثمانية و العشرون فالاستدلال بها كالاستدلال بالشمس و القمر سواء لانها تطلع من المشرق و تغرب في المغرب و هي السرطان و البطين و الثريا و الدبران و الهقعة و الهنعة و الذراع و النثرة و الطرف و الجبهة و الزبرة و الصرفة و العواء و السماك و الغفر و الزباني و الاكليل و القلب و الشولة و النعايم و البلدة و سعد الذابح و سعد بلع و سعد الاحبية و سعد السعود و الفرع المتقدم و الفرع المؤخر و بطن الحوت فمن عرف كل منزل منها بعينه امكنه الاستدلال بها فان الاربعة عشر الاول هي شامية تميل في طلوعها إلى جهة الشمال و الاربعة عشر الاواخر يمانية تميل في طلوعها إلى ناحية الجنوب و من عرف المتوسط منها وقت طلوع الفجر و راه متوسطا استدل به كما يستدل بتوسط الشمس و القمر و اثبت الادلة على نفس الكعبة القطبان الشمال و الجنوبي و القطب الشمالي هو الظاهر في عامة المسكون من الارض مثل ارض الشام و العراق و خراسان و المشرق و مصر و المغرب و هذان القطبان هما قطبا الفلك المذكور في قوله سبحانه {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء٣٣ قالوا فلكه مثل فلكة المغزل و يقرب من القطب الشمالي نجم صغير يسميه الفقهاء القطب و هو كوكب خفي يمتحن الناس به ابصارهم يرى إذا لم يكن في السماء قمر و حوله انجم دائرة كفراشة الرحا في أحد طرفيها الفرقدان و في الاخر الجدي و هو كوكب نير معروف إذا جله المصلي خلفه كان مستقبلا القبلة في الشام و الجزيرة العراق و خراسان[1]

أخبر الله سبحانه أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبنى آدم

قد تنازع الناس فى قدرة الرب و العبد فقالت طائفة كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل و يتناول مقدوره و هذا أصح الأقوال و به نطق الكتاب و السنة و هو أن كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر و مقدوره المباين له وقد تبين بعض مادل على ذلك فى قدرة الرب و أما قدرة العبد فذكر قدرته علي الأفعال القائمة به كثيرة و هذا متفق عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة مثل قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }التغابن١٦ {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً }المجادلة٤ { وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }التوبة٤٢ و قول النبى صلى الله عليه و سلم صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك وأيضا فالقرآن دل على أن المفعولات الخارجة مصنوعة لهم و ما كان مصنوعا لهم فهو مقدرور بالضرورة و الإتفاق و المنازع يقول ليس شئ خارجا عن محل قدرتهم مصنوعا لهم و هذا خلاف القرآن قال تعالى لنوح {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا }هود٣٧ و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ }هود٣٨ و قد أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبنى آدم و جعلها من آياته فقال {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ }يس٤١ { سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ }الحج٦٥ { وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ

[1] شرح العمدة ج: ٤ ص: ٥٥٢-٥٥٤

وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ }الزخرف١٢ و قال {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦}الصافات ٩٥-٩٦[1]

و حمل بني آدم في السفينة من اعظم الآيات قال تعالى{ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{٤١} وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ{٤٢} يس٤١-٤٢ و قال {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }لقمان٣١[2]

من الآيات الدالة على خلق أعمال العباد

فالله تعالى خلق الإنسان بجميع أعراضه وحركاته من أعراضه فقد تبين أنه خلق أعمالهم بقوله{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ }الصافات٩٦ وما تولد عنها من النحت والتصوير بقوله {وَمَا تَعْمَلُونَ }الصافات٩٦ فثبت أنها دالة على أنه خالق هذا وهذا وهو المطلوب مع أن الآيات الدالة على خلق أعمال العباد كثيرة كما تقدم التنبيه عليها لكن خلقه للمصنوعات مثل الفلك والأبنية واللباس هو نظير خلق المنحوتات كقوله تعالى { وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{٤١} وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ{٤٢} يس ٤١- ٤٢ وقوله تعالى {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ }النحل ٨١[3]

وجمهور أهل السنة يقولون إن العبد فاعل لفعله حقيقة لا مجازا وإنما نازع في ذلك طائفة من متكلمة أهل الاثبات كالأشعري ومن اتبعه والقرآن مملوء بما يدل على أن أفعال العباد حادثة بمشيئة الله وقدرته وخلقه فيجب الإيمان بكل ما في القرآن ولا يجوز أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض وقال تعالى { وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{٤١} وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ{٤٢} يس ٤١ -٤٢ والفلك من مصنوعات بني آدم وهذا مثل قوله تعالى {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }الصافات٩٦ فإن طائفة المثبتة للقدر قالوا إن ما هاهنا مصدرية وأن المراد خلقكم وخلق أعمالكم وهذا ضعيف جدا والصواب أن ما ها هنا بمعنى الذي وأن المراد والله خلقكم والأصنام التي تعملونها كما في حديث حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله خلق كل صانع وصنعته وأنه قال { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦} الصافات ٩٥- ٩٦ فذمهم وأنكر عليهم عبادة ما ينحتونه من الأصنام ثم ذكر أن الله خلق العابد والمعبود والمنحوت وهو سبحانه الذي يستحق أن يعبد ولو أريد والله خلقكم وأعمالكم كلها لم يكن هذا مناسبا فإنه قد ذمهم على العبادة وهي من أعمالهم فلم يكن في ذكر كونه خالقا لأعمالهم ما يناسب الذم بل هو إلى العذر أقرب ولكن هذه الآية تدل على أنه خالق لأعمال العباد من وجه آخر وهو أنه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٧

[2] منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ١٧٢

[3] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص:٣٣٨- ٣٤٠

إذا خلق المعمول الذي عملوه وهو الصنم المنحوت فقد خلق التأليف القائم به وذلك مسبب من عمل ابن آدم وخالق المسبب خالق السبب بطريق الأولى وصار هذا كقوله {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ }يس٤٢ ومعلوم أن السفن إنما ينجر خشبها ويركبها بنو آدم فالفلك معمولة لهم كما هي الأصنام معمولة لهم وكذلك سائر ما يصنعونه من الثياب والأطعمة والأبنية فإذا كان الله قد أخبر أنه خلق الفلك المشحون وجعل ذلك من آياته ومما أنعم الله به على عباده علم أنه خالق أفعالهم وعلى قول القدرية لم يخلق إلا الخشب الذي يصلح أن يكون سفنا وغير سفن ومعلوم أن مجرد خلق المادة لا يوجب خلق الصورة التي حصلت بأفعال بني آدم إن لم يكن خالقا للصورة ومثل هذا قوله تعالى {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ }النحل٨٠ إلى قوله {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ }النحل٨١ ومعلوم أن خلق البيوت المبنية والسرابيل المصنوعة هو كخلق السفن المنجورة وقد أخبر الله أن الفلك صنعة بني آدم مع إخباره أنه خلقها كما قال تعالى عن نوح عليه السلام {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ }هود٣٨ وأيضا ففي القرآن من ذكر تفصيل أفعال العباد التي بقلوبهم وجوارحهم وأنه هو تبارك وتعالى يحدث من ذلك ما يطول وصفه[1]

كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته

إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد في السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه في قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }البقرة١٢٨ و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي }إبراهيم٤٠ و قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا }السجدة٢٤ و قال عن آل فرعون {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ }القصص٤١ و قال تعالى { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{٢١} المعارج١٩-٢١ و قال {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا }هود٣٧ و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ }هود٣٨ والفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبرالله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ }يس٤٢ و قال {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ }النحل٨٠ الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{٩٦}الصافات٩٥ -٩٦ فما بمعنى

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٥٩-٢٦٢

الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }الكهف١٧ و قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام١٢٥ و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما بفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل٨٨ و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا }البقرة١٦٤ و قال { فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ }الأعراف٥٧ و قال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة١٦[1]

لطائف لغوية

١-وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{٣٧} وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{٣٨} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{٣٩} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{٤٠}يس٣٧-٤٠ عليم منزه عن الجهل[2]

٢-وقال تعالى { وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}يس٣٩ اصطلاح المتكلمين على ان القديم هو مالا أول لوجوده أو مالم يسبقه عدم ثم يقول بعضهم وقد يستعمل القديم فى المتقدم على غيره سواء كان أزليا أو لم يكن كما قال تعالى { حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ }يس٣٩ وقال { وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ }الأحقاف١١ وقوله تعالى {قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ }يوسف٩٥ وقال { أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{٧٥} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{٧٦} الشعراء٧٥-٧٦ وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحى ولا ريب انه أولى بالقدم فى لغة العرب ولهذا كان لفظ المحدث فى لغة العرب بازاء القديم قال تعالى {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ }الأنبياء٢ وهذا يقتضى أن الذى نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم وهذا موافق للغة العرب التى نزل بها القرآن[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧٨-٨٠
[2] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٠٥ و الصفدية ج: ٢ ص: ٨٥

القديم خلاف الحديث وإن كان مسبوقا بغيره[1]

وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب كما قال {كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ }يس٣٩ وقال {قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ }يوسف٩٥ وقال { وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ }الأحقاف١١ وقال { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{٧٥} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{٧٦} الشعراء ٧٥-٧٦[2]

٣-قال تعالى { إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ}يس ٤٤ ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هى الجنة[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٢٤٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥٢٢ و الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٢٦٩ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١

[3] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

يس٤٥-٦٨

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٤٥} وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٤٦} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٤٧} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٨} مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ{٤٩} فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ{٥٠} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ{٥١} قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ{٥٢} إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{٥٣} فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٥٤} إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ{٥٥} هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ{٥٦} لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ{٥٧} سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ{٥٨} وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥} وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ{٦٦} وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ{٦٧} وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ{٦٨}

من شهد الحقيقة الكونية ولم يقم بما امر به من الحقيقة الدينية كان من جنس ابليس

قال تعالى{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٤٥} وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٤٦} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٤٧} يس٤٥-٤٧

فإن اعترف العبد ان الله ربه وخالقه وأنه مفتقر اليه محتاج اليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع اليه ويتوكل عليه لكن قد يطيع امره وقد يعصيه وقد يعبده مع ذلك وقد يعبد الشيطان والاصنام ومثل هذه العبودية لا تفرق بين اهل الجنة والنار ولا يصير بها الرجل مؤمنا كما قال تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }يوسف١٠٦ فإن المشركين كانوا

يقرون ان الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }لقمان٢٥ وقال تعالى { قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٨٤} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ{٨٥} المؤمنون٨٤-٨٥ الى قوله { قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } المؤمنون٨٩ وكثير ممن يتكلم فى الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة وهى الحقيقة الكونية التى يشترك فيها وفى شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر وابليس معترف بهذه الحقيقة واهل النار قال ابليس { رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }الحجر٣٦ وقال { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }الحجر٣٩ وقال { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }ص٨٢ وقال {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ }الإسراء٦٢ وامثال هذا من الخطاب الذى يقر فيه بان الله ربه وخالقه وخالق غيره وكذلك اهل النار قالوا {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ }المؤمنون١٠٦ وقال تعالى {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا }الأنعام٣٠ فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما امر به من الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بالهيته وطاعة امره وامر رسوله كان من جنس ابليس واهل النار وان ظن مع ذلك انه خواص اولياء الله واهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهى الشرعيان كان من اشر اهل الكفر والالحاد ومن ظن ان الخضر وغيره سقط عنهم الامر لمشاهدة الارادة ونحو ذلك كان قوله هذا من شر اقوال الكافرين بالله ورسوله حتى يدخل فى النوع الثانى من معنى العبد وهو العبد العابد فيكون عابدا لله لا يعبد الا اياه فيطيع امره وأمر رسله ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ويعادى اعداءه وهذا العبادة متعلقة بالهيته ولهذا كان عنوان التوحيد لا اله الا الله بخلاف من يقر بوبوبيته ولا يعبده او يعبد معه الها آخر فالاله الذى يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والاجلال والاكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك وهذه العبادة هي التى يحبها الله ويرضاها بها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله وأما العبد بمعنى المعبد سواء اقر بذلك او أنكره فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة فى عبادة الله ودينه وامره الشرعى التى يحبها ويرضاها ويوالى اهلها ويكرمهم بجنته وبين الحقائق الكونية التى يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر التى من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع ابليس اللعين والكافرين برب العالمين ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض أو فى مقام او حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون وكره فيه الاشتباه على السالكين حتى زلق فيه من اكابر الشيوخ المدعين التحقيق والتوحيد والعرفان مالا يحصيهم الا الله الذى يعلم السر والاعلان والى هذا اشار الشيخ عبد القادر رحمه الله فيما ذكر عنه فبين ان كثيرا من الرجال إذا وصلوا الى إلى القضاء والقدر أمسكوا الا انا فإنى انفتحت لى فيه روزنة فنازعت اقدار الحق بالحق للحق والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا للقدر والذى ذكره الشيخ رحمه الله هو الذى امر الله به ورسوله لكن كثير من الرجال غلطوا فإنهم قد يشهدون ما يقدر على احدهم من المعاصى والذنوب أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر ويشهدون ان هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدرة داخل فى حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة فيضاهون المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام١٤٨ وقالوا {أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ}يس٤٧ وقالوا { لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم }الزخرف٢٠ ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا ان نرضى به ونصبر على موجبه فى المصائب التى تصيبنا كالفقر والمرض والخوف قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ }التغابن١١ قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم

وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ {٢٣}الحديد٢٢-٢٣ وفى الصحيحين عن النبى أنه قال احتج آدم وموسى فقال انت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شئ فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال أدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه فهل وجدت ذلك مكتوبا على قبل ان أخلق قال نعم قال فحج آدم موسى وأدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر فان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لابليس وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فان آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لامه لأجله المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فأجابه آدم أن أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدار وما قدر من المصائب يجب لاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا واما الذنوب فليس للعبد ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر وفيتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ } غافر٥٥ وقال تعالى { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً }آل عمران١٢٠ وقال {وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }آل عمران١٨٦ وقال يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف٩٠ وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر بحسب قدرته يجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله ويحب في الله ويبغض في الله كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ }الممتحنة١ إلى قوله {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ }الممتحنة٤ وقال تعالى {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ }المجادلة٢٢ إلى قوله { أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}المجادلة٢٢ وقال تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ }القلم٣٥ وقال {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص٢٨ وقال تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية٢١ وقال تعالى{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ {١٩} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ {٢٠} وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ {٢١} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ{٢٢} فاطر١٩-٢٢ وقال تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً }الزمر٢٩وقال تعالى {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ }النحل٧٥ إلى قوله { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٧٥} وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ } النحل ٧٦ إلى قوله {وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٧٦} النحل ٧٦ وقال تعالى {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ }الحشر٢٠ ونظائر ذلك مما يفرق الله فيه بين أهل الحق والباطل وأهل الطاعة وأهل المعصية وأهل البر وأهل الفجور وأهل الهدى والضلال وأهل الغي والرشاد وأهل الصدق والكذب فمن شهد الحقيقة الكونية دون الدينية سوى بين هذه الأجناس المختلفة التي فرق الله بينها غاية التفريق حتى يؤول به الأمر إلى أن يسوي الله بالأصنام كما قال تعالى عنهم { تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٩٧} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{٩٨} الشعراء٩٧-٩٨ بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سووا الله بكل موجود وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقا لكل موجود إذ جعلوه هو وجود المخلوقات وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عباد لا بمعنى أنهم معبدون و لا بمعنى أنهم عابدون إذ يشهدون

أنفسهم هي الحق كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي صاحب الفصوص وأمثاله من الملحدين المفترين كابن سبعين وأمثاله ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون وهذا ليس بشهود لحقيقة لا كونية ولا دينية بل هو ضلال وعمي عن شهود الحقيقة الكونية حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتا للخالق والمخلوق إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم وأما المؤمنون ب الله ورسوله عوامهم وخواصهم الذين هم أهل الكتاب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن أهلين من الناس قيل من هم يا رسول الله قال أهل القرآن هم أهل الله وخاصته فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوق ليس هو حالا فيه ولا متحدا به ولا وجوده وجوده و النصارى كفرهم الله بأن قالوا بالحلول والاتحاد بالمسيح خاصة فكيف من جعل ذلك عاما في كل مخلوق ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته وطاعة رسوله ونهى عن معصيته ومعصية رسوله وأنه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وأن على الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره ويستعينوا به على ذلك كما قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة٥[1]

القدرية المشركية الذين يحتجون بالقدر على دفع الامر والنهى

ان من آمن بالقدر وشهد ان الله رب كل شيء لم يكن عليه امر ولا نهى وهذا كفر بجميع كتب الله ورسله وما جاءوا به من الامر والنهى وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام١٤٨ قال الله تعالى { كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ }الأنعام١٤٨ ونظير هذا فى سورة النحل وفى سورة يس {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }يس٤٧ وكذلك فى سورة الزخرف {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }الزخرف٢٠ وهؤلاء هم القدرية المشركية الذين يحتجون بالقدر على دفع الامر والنهى هم شر من القدرية الذين هم مجوس هذه الامة الذين روى فيهم أن مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم لأن هؤلاء يقرون بالأمر والنهى والثواب والعقاب لكن أنكروا عموم الارادة والقدرة والخلق وربما أنكروا سابق العلم وأما القدرية المشركية فانهم ينكرون الأمر والنهى والثواب والعقاب لكن وان لم ينكروا عموم الارادة والقدرة والخلق فانهم ينكرون الأمر والنهى والوعد والوعيد ويكفرون بجميع الرسل والكتب فان الله انما ارسل الرسل مبشرين من اطاعهم بالثواب ومنذرين من عصاهم بالعقاب وقد بسطنا الكلام على هؤلاء فى مواضع غير هذا[2]

الذين يظنون أن دين الله الموافقة للقدر

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦٧ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٥٣-١٦٢
[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٤٢٩

قال تعالى{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٤٥} وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٤٦} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٤٧} يس٤٥-٤٧

قسم من يشاهد ربوبية الله تعالى لعباده التى عمت جميع البرايا ويظن أن دين الله الموافقة للقدر سواء كان فى ذلك عبادة الله وحده لا شريك له أو كان فيه عبادة الاوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه وسواء كان فيه الايمان بكتبه ورسله أو الأعراض عنهم والكفر بهم وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين فى الأرض وبين المتقين والفجار ويجعلون المسلمين كالمجرمين ويجعلون الايمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان وأهل الجنة كأهل النار وأولياء الله كأعداء الله وربما جعلوا هذا من باب الرضا بالقضاء وربما جعلوه التوحيد والحقيقة بناء على انه توحيد الربوبية الذى يقر به المشركون وأنه الحقيقة الكونية وهؤلاء يعبدون الله على حرف فان أصابهم خير اطمأنوا به وان اصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة وغالبهم يتوسعون فى ذلك حتى يجعلوا قتال الكفار قتالا لله ويجعلون اعيان الكفار والفجار والأوثان من نفس الله وذاته ويقولون ما فى الوجود غيره ولا سواه بمعنى ان المخلوق هو الخالق والمصنوع هو الصانع وقد يقولون {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام١٤٨ ويقولون { أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ }يس٤٧ إلى نحو ذلك من الأقوال والأفعال التى هى شر من مقالات اليهود والنصارى بل ومن مقالات المشركين والمجوس وسائر الكفار من جنس مقالة فرعون والدجال ونحوهما ممن ينكر الصانع الخالق البارىء رب العالمين أو يقولون إنه هو أو أنه حل فيه وهؤلاء كفار بأصلى الاسلام وهما شهادة ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله فان التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ولا نجعل له ندا فى إلهيته لا شريكا ولا شفيعا[1]

حال كثير من المتفقرة والمتصوفة

قال تعالى{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٤٥} وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٤٦} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٤٧} يس٤٥-٤٧

وهناك قسم من الناس يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ويستعينون بها على أهوائهم وأذواقهم غير ناظرين إلى حقيقة امره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة ولهذا كثيرا ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود لا يقصدون ما يرضي الرب ويحبه وكثيرا ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي ويسمون هذا حقيقة ويظنون أن هذه الحقيقة الأمرية الدينية هي التي تحوي مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهرا وباطنا وهؤلاء كثيرا ما يسلبون أحوالهم وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يرتد عن الاسلام لأن العاقبة للتقوى ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه تارة من بدعة يظنونها شرعة وتارة في الاحتجاج

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص:٤٩- ٥٤

بالقدر على الأمر والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الأنعام ذكر ما ابتدعوه في الدين وجعلوه شرعة وقد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرمه الله وأن شرعوا ما لم يشرعه الله وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }يس٤٧[1]

من أخذ يدخل في التوكل تاركا لما أمر به من الأسباب فهو جاهل ظالم عاص لله

قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وكلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يقتضي وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس وأنه لا يقضي غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال { وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا }البقرة٢٣٣ وقال {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ }النساء٥ فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله { أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{١٤} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{١٥} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{١٦}} البلد ١٤ -١٥ وقوله { وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ }الحج٣٦وقوله {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ }الحج٢٨ وقال {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }يس٤٧ فذم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سببا إلا بمشيئة الله تعالى فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فمن ظن الاستغناء بالسبب من التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب فمن رجا نصرا أو رزقا من غير الله خذله الله كما قال علي رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وقد قال تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }فاطر٢ وقال تعالى {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }يونس١٠٧ وقال { قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }الزمر٣٨ وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركا لما أمر به من الأسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله يترك ما أمره فإن فعل المأمور به عبادة لله وقد قال تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود١٢٣ وقال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة٥ وقال { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد٣٠ وقال شعيب عليه

---

[1] أمراض القلوب ج: ١ ص: ٥١

السلام { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود٨٨ وقال {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }الشورى١٠ وقال {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }الممتحنة٤ فليس من فعل شيئا أمر به وترك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلا أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب وقد روى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلي فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا يلوم على العجز لكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن ب الله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو إني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان ففي قوله صلى الله عليه وسلم احرص على ما ينفعك واستعن ب الله ولا تعجز أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس كما قال في الحديث الآخر إن الله لا يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس وكما في الحديث الشامي الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله فالعاجز في الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز الذي هو مقابل البر فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}البقرة١٩٧ فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجا كان مطيعا لله في هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتا إلى أزواد الحجيج كلا على الناس وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف فطائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصا وقدحا في التوحيد والتوكل وأن تركة من كمال التوكل والتوحيد وهم في ذلك ملبوس عليهم وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات انفع لهم من ذلك كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلا سعي فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في علم صالح أنفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصا وانقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة وقد قال في الحديث كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستكسوني أكسكم وفي الطبراني أوغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع

المخلوق والمأمور وإنما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن يعون بالسبب المأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله يتيسر لعمل أهل السعادة ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره أنه ييسره لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقي نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وطائفة تظن أن التوكل انما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل كذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ومن تركها بالكلية فهو إما كافر وإما منافق لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علما وعملا بأقل لوما من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة إن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها والأمور الظاهرة كما لها وفروعها التي لا تتم إلا بها[1]

المباحية الذين يسقطون الأمر والنهى مطلقا ويحتجون بالقضاء والقدر

قال تعالى{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٤٥} وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٤٦} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٤٧} يس٤٥-٤٧

وسلف الأمة و أئمتها متفقون أيضا على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه و متفقون على الإيمان بوعده و وعيده الذي نطق به الكتاب و السنة و متفقون أنه لا حجة لأحد على الله فى و اجب تركه و لا محرم فعله بل لله الحجة البالغة على عباده و من إحتج بالقدر على ترك مأمور أو فعل محظور أو دفع ما جاءت به النصوص فى الوعد و الوعيد فهو أعظم ضلالا و إفتراء على الله و مخالفة لدين الله من أولئك القدرية فإن أولئك مشبهون بالمجوس و قد جاءت الآثار فيهم أنهم مجوس هذه الأمة كما روى ذلك عن إبن عمر وغيره من السلف و قد رويت فى ذلك أحاديث مرفوعة الى النبى صلى الله عليه وسلم منها ما رواه أبو داود و الترمذي و لكن طائفة من أئمة الحديث طعنوا فى صحة الأحاديث المرفوعة فى ذلك و هذا مبسوط فى موضعه

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٢٦-٤٣٠ و مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٧٩-١٨٣

والمقصود هنا أن القدرية النافية يشبهون المجوس فى كونهم أثبتوا غير الله يحدث أشياء من الشر بدون مشيئته و قدرته و خلقه   وأما المحتجون على القدر بإسقاط الأمر والنهي والوعد و الوعيد فهؤلاء يشبهون المشركين الذين قال الله فيهم {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ }الأنعام١٤٨ و قال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ }النحل٣٥ و قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }يس٤٧ و قال تعالى {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }الزخرف٢٠ فهؤلاءالمحتجون بالقدر على سقوط الأمر و النهي من جنس المشركين المكذبين للرسل و هم أسوأ حالا من المجوس و هؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم و عليهم غضب و لهم عذاب شديد   ومن هؤلاء من يظن أن آدم إحتج على موسى بالقدر على الذنب و أن ذلك جائر لخاصة الأولياء المشاهدين للقدر و هذا ضلال عظيم فإن موسى إنما لام آدم على المعصية التى لحقت الذرية بسبب أكله من الشجرة فقال لماذا أخرجتنا و نفسك من الجنة   والعبد مأمور عند المصائب أن يرجع للقدر فإن سعادة العبد أن يفعل المأمور و يترك المحظور و يسلم للمقدور قال الله تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }التغابن١١ قال إبن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم   فالسعيد يستغفر من المعائب و يصبر على المصائب كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ }غافر٥٥ و الشقي يجزع عند المصائب و يحتج بالقدر على المعائب و إلا فآدم صلى الله عليه و سلم قد تاب من الذنب و قد إجتباه ربه وهداه و موسى أجل قدرا من أن يلوم أحدا على ذنب قد تاب منه و غفر الله له فضلا عن آدم و هو أيضا قد تاب مما فعل حيث قال {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ }القصص١٦ و قال { إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ }الأعراف١٥٦ و قال { أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا }الأعراف١٥٥ وموسى وآدم أعلم بالله من أن يظن و احد منهما أن القدر عذر لمن عصى الله و قد علما ما حل بإبليس و غير إبليس و آدم نفسه قد أخرج من الجنة و طفق هو و إمرأته يخصفان عليهما من ورق الجنة و قد عاقب الله قوم نوح و هود و صالح و غيرهم من الأمم و قد شرع الله عقوبة المعتدين وأعد جهنم للكافرين فكيف يكون القدر عذرا للذنب   وهؤلاء لايحتجون بالقدر إلا إذا كانوا متبعين لأهوائهم بغير علم و لا يطردون حجتهم فإن القدر لو كان عذرا للخلق للزم أن لا يلام أحد ولا يذم ولا يعاقب لا فى الدنيا والآخرة ولا يقتص من ظالم أصلا بل يمكن الناس أن يفعلوا ما يشتهون مطلقا ومعلوم أن هذا لا يتصور أن يقوم عليه مصلحة أحد لا فى الدنيا ولا فى الآخرة بل هو موجب الفساد العام وصاحب هذا لا يكون إلا ظالما متناقضا فإذا آذاه غيره أو ظلمه طلب معاقبته و جزاه و لم يعذره بالقدر و إذا كان هو الظالم إحتج لنفسه بالقدر فلا يحتج أحد بالقدر إلا لإتباع هواه بغير علم و لا يكون إلا مبطلا لا حق معه كما إحتج به المشركون فقال تعالى { قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ }الأنعام١٤٨ و قال { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ }النحل٣٥ ولهذا كان هؤلاء المشركون المحتجون بالقدر إذا عاداهم أحد قابلوه و قاتلوه و عاقبوه و لم يقبلوا حجته إذا قال لو شاءالله ما عاديتكم بل هم دائما يعيبون من ظلم و إعتدى و لا يقبلون إحتجاجه بالقدر فلما جاءهم الحق من ربهم أخذوا يدافعون ذلك بالقدر فصاروا يحتجون على دفع أمر الله و نهيه بما لا يجوزون أن يحتج به عليهم فى دفع أمرهم و نهيهم بل و لا يجوز أحد من العقلاء أن يحتج به عليه فى دفع حقه

فعارضوا ربهم و رسل ربهم بما لا يجوزون أن يعارض به أحد من الناس ولا رسل أحد من الناس فكان أمر المخلوق و نهيه و حقه أعظم على قولهم من أمر الله ونهيه وحقه على عباد الله وكان أمر الله ونهيه وحقه على عباده أخف حرمة عندهم من أمر المخلوق ونهيه وحقه على غيره فإن حق الله على عباده أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئا كما ثبت فى الصحيحين عن معاذ بن جبل قال كنت رديف النبى صلى الله عليه و سلم على حمار فقال يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده قلت الله و رسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئا أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله و رسوله أعلم قال حقهم عليه أن لايعذبهم فكان هؤلاء المشركون من أعظم الناس جهلا وعداوة لله ورسوله فإحتجوا على إسقاط حقه و أمره و نهيه بما لا يجوزون لاهم ولا أحد من العقلاء أن يحتج به على إسقاط حق مخلوق ولا أمره ولا نهيه و هذا كما جعلوا لله شركاء و بنات و هم لا يرضى أحدهم أن يكون مملوكه شريكه و لا يرضى البنات لنفسه قال تعالى {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ }النحل٦٢ و قال تعالى {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ }الزخرف١٧ و قال تعالى {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ }الروم٢٨ أي كخيفة بعضكم بعضا و قوله تعالى {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً }النور١٢ و قوله { فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ }البقرة٥٤ و قوله { نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ }آل عمران٦١ فالمكذبون للرسل دائما حجتهم داحضة متناقضة فهم في قول مختلف يؤفك عنه من أفك قال الله تعالى {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً }الفرقان٣٣ و قال تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً }الفرقان٣١ وقال تعالى {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }الأنعام٨٣ فحجة المشركين في شركهم بالله وجعلهم له ولدا و فى دفع أمره ونهيه بالقدر داحضة وقد بسط الكلام على هذه الأمور وما يناسبها فى غير هذا الموضع وبين أن قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأنه صادر عن موجب بالذات متولد عن العقول والنفوس الذين يعبدون الكواكب العلوية و يصنعون لها التماثيل السفلية كأرسطو و أتباعه أعظم كفرا و ضلالا من مشركى العرب الذين كانوا يقرون بأن الله خلق السموات و الأرض وما بينهما فى ستة أيام بمشيئته و قدرته ولكن خرقوا له بنين و بنات بغير علم وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا وكذلك المباحية الذين يسقطون الأمر و النهي مطلقا ويحتجون بالقضاء والقدر أسواء حالا من اليهود والنصارى ومشركي العرب فإن هؤلاء مع كفرهم يقرون بنوع من الأمر والنهي والوعد والوعيد و لكن كان لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله بخلاف المباحية المسقطة للشرائع مطلقا فإنما يرضون بما تهواه أنفسهم و يغضبون لما تهواه أنفسهم لا يرضون لله ولا يغضبون لله ولا يحبون لله ولا يغضبون لله ولا يأمرون بما أمر الله به ولا ينهون عما نهى عنه إلا إذا كان لهم في ذلك هوى فيفعلونه لأجل هواهم لا عبادة لمولاهم ولهذا لا ينكرون ما و قع فى الوجود من الكفر والفسوق والعصيان إلا إذا خالف أغراضهم فينكرونه إنكارا طبيعيا شيطانيا لا إنكارا شرعيا رحمانيا ولهذا تقترن بهم الشياطين إخوانهم فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون وقد تتمثل لهم الشياطين و تخاطبهم و تعينهم على بعض أهوائهم كما كانت الشياطين تفعل بالمشركين عباد الأصنام و هؤلاء يكثرون فى الطوائف الخارجين عما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة الذين يسلكون طرقا فى العبادات والإعتقادات مبتدعة فى الدين ولا يتحرون فى عباداتهم وإعتقاداتهم موافقة الرسول والإعتصام بالكتاب والسنة فتكثر فيهم الأهواء و الشبهات و تغويهم الشياطين و تصير فيهم شبهة من

المشركين بحسب بعدهم عن الرسول و كما يجب إنكار قول القدرية المضاهين للمجوس فإنكار قول هؤلاء أولى و الرد عليهم أحرى و هؤلاء لم يكونوا موجودين فى عصر الصحابة و التابعين لهم بإحسان فإن البدع إنما يظهر منها أولا فأولا الأخف فلأخف كما حدث فى آخر عصر الخلفاء الراشدين بدعة الخوارج و الشيعة ثم فى آخر عصر الصحابة بدعة المرجئة و القدرية ثم فى آخر عصر التابعين بدعة الجهمية معطلة الصفات و أما هؤلاء المباحية المسقطون للأمر و النهي محتجين على ذلك بالقدر فهم شر من جميع هذه الطوائف و إنما حدثوا بعد هؤلاء كلهم[1]

لفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا

قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{٤٥} وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٤٦} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٤٧} يس٤٥-٤٧

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩-٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا {٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧-٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ }القمر٤٧[2]

صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة

قال تعالى {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٨} مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ{٤٩} فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ{٥٠} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ{٥١} قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ{٥٢} إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{٥٣} فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٥٤} يس٤٨-٥٤

صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة العلم والقدرة والغنى وان شئت ان تقول العلم والقدرة والقدرة إما على الفعل وهو التأثير وإما على الترك وهو الغنى والأول اجود وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال الا لله وحده فانه الذى احاط بكل شيء علما وهو على كل شيء قدير وهو غنى عن العالمين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٤٥٢-٤٥٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧

وقد امر الرسول ان يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ }الأنعام٥٠ وكذلك قال نوح عليه السلام{وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ } هود٣١ فهذا أول أولى العزم واول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وهذا خاتم الرسل وخاتم اولى العزم كلاهما يتبرأ من ذلك وهذا لأنهم يطالبون الرسول تارة بعلم الغيب كقوله {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }الأنبياء٣٨ و {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي }الأعراف١٨٧ وتارة بالتأثير كقوله { وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً{٩٠} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً{٩١} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً{٩٢} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً{٩٣}الإسراء٩٠-٩٣ وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية كقوله {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً {٧} أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا {٨}الفرقان٧ -٨ فأمره ان يخبر انه لا يعلم الغيب ولا يملك خزائن الله ولا هو ملك غنى عن الاكل والمال إن هو الا متبع لما اوحى اليه واتباع ما اوحى اليه هو الدين وهو طاعة الله وعبادته علما وعملا بالباطن والظاهر وانما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علمه اياه ويقدر منه على ما اقدره الله عليه ويستغنى عما اغناه الله عنه من الامور المخالفة للعادة المطردة او لعادة غالب الناس قال تعالى {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٨} مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ{٤٩} فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ{٥٠} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ{٥١} قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ{٥٢} إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{٥٣} فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٥٤} يس٤٨-٥٤[1]

{سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ }

ما رواه ابن ماجه فى سننه والدارقطنى فى الرؤية عن الفضل بن عيسى الرقاشى عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله بينا أهل الجنة فى نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم فاذا الرب تبارك وتعالى اشرف عليهم فقال السلام عليكم يا اهل الجنة وهو قول الله {سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ }يس٥٨ فلا يلتفتون الى شىء مما هم فيه من النعيم ما دام الله بين أظهرهم حتى احتجب عنهم وتبقى فيهم بركته ونوره ورويناه من طريق اخرى معروفة الى سلمة بن شبيب حدثنا بشر بن حجر حدثنا عبدالله بن عبيدالله عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله بينما أهل الجنة فى ملكهم ونعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فاذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فيقول السلام عليكم يا أهل الجنة وينظر فذلك قوله تبارك وتعالى {سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ }يس٥٨ فينظرون اليه وينظر اليهم فلا يلتفتون الى شىء من الملك

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣١٣

والنعيم حتى يحتجب عنهم قال فيبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم وهذه الطريق تنفى أن يكون قد تفرد به الفضل الرقاشى وهذا الحديث بعمومه يقتضى ان جميعهم يرونه لكن لم يستدل به ابتداء لأن فى اسناده مقالا والمقصود هنا أنه قد روى ذلك وهو ممكن ولا سبيل الى دفعه فى نفس الامر والعمومات الصحيحة تثبت جنس ما اثبته هذا الحديث وايضا فالحديث الصحيح اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو الم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما أعطاهم شيئا احب اليهم من النظر اليه فهذا ليس هو نظر الجمعة لان هذا عند الدخول ولم يكونوا ينتظرونه ولا اجتمعوا لاجله ونظر الجمعة يقدمون اليه من منازلهم ويجتمعون لاجله كما جاءت به الاحاديث وبين هذا التجلى وذلك فرق تدل عليه الاحاديث ولا هذا التجلى من المرتين اللتين تختص بالاعلين بل هو عام لمن دخل الجنة كما دل عليه الحديث موافقا لقوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أولئك اصحاب الجنة[1]

من ترك عبادته بما أمر به و اتبع هواه فهو يعبد الشيطان

قال تعالى { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ{٥٥} هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ{٥٦} لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ{٥٧} سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ{٥٨} وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩-٦٥ فكل من عبد الله كان سعيدا من أهل الجنة و كان من عباد الله الصالحين قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١}يس٦٠ -٦١ و فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن إنك تأتى قوما هم أهل كتاب فأول ما ندعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و فى رواية فإدعهم إلى عبادة الله فإذا عرفوا الله فأعلمهم فلا يعبد إلا الله بعد أن أرسل محمدا و عرفت رسالته و بلغت و لهذا إتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة و لو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم فإن الله لا يظلم أحدا و قبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به فأما من ترك عبادته بما أمر به و اتبع هواه فهو لا يعبد الله إنما يعبد الشيطان و يعبد الطاغوت[2]

من عبده بغير ما أمرت به رسله فإنه من عباد الشيطان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٤٤٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٧٢

وقال تعالى {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{٢٢١} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{٢٢٢} الشعراء ٢٢١-٢٢٢ فالأفاك هو الكذاب والأثيم الفاجر كما قال { لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{١٥} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{١٦} العلق١٥-١٦ومن تكلم في الدين بلا علم كان كاذبا وإن كان لا يتعمد الكذب كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له سبيعة الأسلمية وقد توفي عنها زوجها سعد بن خولة في حجة الوداع فكانت حاملا فوضعت بعد موت زوجها بليال قلائل فقال لها أبو السنابل بن بعكك ما أنت بناكحة حتى يمضي عليك آخر الأجلين فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذب أبو السنابل بل حللت فانكحي وكذلك لما قال سلمة بن الأكوع إنهم يقولون أن عامرا قتل نفسه وحبط عمله فقال كذب من قالها إنه لجاهد مجاهد وكان قائل ذلك لم يتعمد الكذب فإنه كان رجلا صالحا وقد روى أنه كان أسيد بن الحضير لكنه لما تكلم بلا علم كذبه النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال أبو بكر وابن مسعود وغيرهما من الصحابة فيما يفتون فيه باجتهادهم إن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فهو مني ومن الشيطان و الله ورسوله بريئان منه فإذا كان خطأ المجتهد المغفور له هو من الشيطان فكيف بمن تكلم بلا إجتهاد يبيح له الكلام في الدين فهذا خطأه أيضا من الشيطان مع أنه يعاقب عليه إذا لم يتب والمجتهد خطأه من الشيطان وهو مغفور له كما أن الاحتلام والنسيان وغير ذلك من الشيطان وهو مغفور بخلاف من تكلم بلا اجتهاد يبيح له ذلك فهذا كذب آثم في ذلك وإن كانت له حسنات في غير ذلك فإن الشيطان ينزل على كل إنسان ويوحي بحسب موافقته له ويطرد بحسب إخلاصه لله وطاعته له قال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }الحجر٤٢ وعباده هم الذين عبدوه بما أمرت به رسله من أداء الواجبات والمستحبات وأما من عبده بغير ذلك فإنه من عباد الشيطان لا من عباد الرحمن قال تعالى{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} يس٦٠ -٦٢ والذين يعبدون الشيطان وأكثرهم لا يعرفون أنهم يعبدون الشيطان بل قد يظنون أنهم يعبدون الملائكة أو الصالحين كالذين يستغيثون بهم ويسجدون لهم فهم في الحقيقة إنما عبدوا الشيطان وإن ظنوا أنهم يتوسلون ويستشفعون بعباد الله الصالحين قال تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ{٤٠} قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ{٤١} سبأ٤٠-٤١ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها فإن الشيطان يقارنها حينئذ حتى يكون سجود عباد الشمس له وهم يظنون أنهم يسجدون للشمس وسجودهم للشيطان وكذلك أصحاب دعوات الكواكب الذين يدعون كوكبا من الكواكب ويسجدون له ويناجونه ويدعونه ويضعون له من الطعام واللباس والبخور والتسبيحات ما يناسبه كما ذكره صاحب السر المكتوم المشرقي وصاحب الشعلة النورانية البوني المغربي وغيرهما فإن هؤلاء تنزل عليهم أرواح تخاطبهم وتخبرهم ببعض الأمور وتقضي لهم بعض الحوائج ويسمون ذلك روحانية الكواكب ومنهم من يظن أنها ملائكة وإنما هي شياطين تنزل عليهم قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }الزخرف٣٦ وذكر الرحمن هو الذى أنزله وهو الكتاب والسنة اللذان قال الله فيهما { وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ }البقرة٢٣١ وقال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }آل عمران١٦٤ وقال تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }الجمعة٢ وهو الذكر الذى قال الله فيه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }الحجر٩ فمن أعرض عن هذا الذكر وهو الكتاب والسنة قيض له قرين من الشياطين فصار من أولياء الشيطان بحسب ما تابعه وإن كان مواليا للرحمن تارة للشيطان أخرى كان فيه

من الإيمان وولاية الله بحسب ما والى فيه الرحمن وكان فيه من عداوة الله والنفاق بحسب ما والى فيه الشيطان كما قال حذيفة بن اليمان القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذلك قلب الكافر و الأغلف الذى يلف عليه غلاف كما قال تعالى عن اليهود {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء١٥٥ وقد تقدم قوله من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه وقلب منكوس فذلك قلب المنافق وقلب فيه مادتان مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق فأيهما غلب كان الحكم له وقد روى هذا فى مسند الإمام أحمد مرفوعا وفى الصحيحين عن عبدالله بن عمرون بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصله منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر فقد بين النبى أن القلب يكون فيه شعبة نفاق وشعبة إيمان فإذا كان فيه شعبة نفاق كان فيه شعبة من ولايته وشعبة من عداوته ولهذا يكون بعض هؤلاء يجرى على يديه خوارق من جهة إيمانه بالله وتقواه تكون من كرامات الأولياء وخوارق من جهة نفاقه وعداوته تكون من أحوال الشياطين ولهذا أمرنا الله تعالى أن نقول كل صلاة { اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧} الفاتحة ٦-٧ و المغضوب عليهم هم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه و الضالون الذين يعبدون الله بغير علم فمن إتبع هواه وذوقه ووجده مع علمه أنه مخالف للكتاب والسنة فهو من المغضوب عليهم وإن كان لا يعلم ذلك فهو من الضالين نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وصلى الله على محمد[1]

الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته

قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩-٦٥ الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بغضها في قلبه أو لقوة محبتها التي تغلب بغضها فالإنسان لا يأتي شيئا من المحرمات كالفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق والشرك بالله مالم ينزل به سلطانا والقول علي الله بغير علم إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله أو ضعف العلم والتصديق وإما ضعف المحبة والبغض لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحا وهو التصديق فإن هذه المحرمات يفعلها المؤمن مع كراهته وبغضه لها فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها وفيه خوف من عقاب الله عليها وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها إما بتوبة وإما حسنات وإما عفو وإما دون ذلك وإلا فإذا لم يبغضها ولم يخف الله فيها ولم يرج رحمته فهذا لا يكون مؤمنا بحال بل هو كافر أو منافق فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد

[1] الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص:٢٧٢- ٢٧٤ و مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:٤٥٠- ٤٥٣ و مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٣٥-١٣٦

أن تقترن بها حسنات له لكن قوة شهوته للسيئة وما زين له فيها حتي ظن أنها مصلحة له أوجب وقوعها وهو اتباع الظن وما تهوي الأنفس وهذا القدر عارض بعض إيمانه فترجح عليه حتي ما هو ضد لبعض الإيمان فلم يبق مؤمنا الإيمان الواجب كما قال النبي لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زينه له حتى رآه حسنا وفيما أمره به فأطاعه وهذا من الشرك بالشيطان كما قال تعالى { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً }الكهف٥٠ وقال تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١}يس٦٠-٦١ ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله كما قال تعالى عن ابليس { وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} الحجر٣٩-٤٠ وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر٤٢ وقال تعالي { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠} النحل٩٩-١٠٠ فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا علي من أشرك به فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك والشيطان يوالي الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالي { إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ }الأعراف٢٧ وقال تعالي { وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ{٣٦} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{٣٧} حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ{٣٨} الزخرف٣٦-٣٨ وقال تعالي في قصة يوسف عليه السلام { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف٢٤ ويشهد لهذا ما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي إن الشيطان ينتصب عرشه علي البحر ويبعث سراياه فجميع ما نهي الله عنه هو من شعب الكفر وفروعه كما أن كل ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص لدين الله ولهذا قال تعالي {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ }البقرة١٩٣ [1]

المتولون للشيطان هم الذين يحبون ما يحبه

قال تعالي { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{٩٨} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠} النحل٩٨-١٠٠ فأخبر سبحانه أن المتوكلين علي الله ليس للشيطان عليهم سلطان وإنما سلطانه علي المتولين له والمتولي من الولاية وأصله المحبة والموافقة كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة فالمتولون له هم الذين يحبون ما يحبه الشيطان ويوافقه فهم مشركون به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره كما قال تعالي {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١}يس٦٠ -٦١ والشياطين شياطين الإنس والجن والعبادة فيها الرغبة والرهبة قال تعالي {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ{٧٥} قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{٧٦} قَالَ

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٠٥-١٠٦

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٧٧} وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٧٨} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٧٩} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٨٠} إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٨١} قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٨٣} قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ{٨٤} لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٥}ص٧٥-٨٥ فأقسم الشيطان { لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٨٢} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٨٣} ص٨٢-٨٣ وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان علي هؤلاء فقال في الحجر {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥}الحجر ٣٤-٣٥الى قوله { قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠}الحجر ٣٩-٤٠ قال تعالي {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر ٤٢ وقوله { إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر ٤٢ استثناء منقطع في أقوي القولين إذ العباد هم العابدون لا المعبودون كما قال تعالي {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً }الإنسان٦ وقال تعالي {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ{٦٧} يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ{٦٨} الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ{٦٩}الزخرف٦٧ -٦٩ وقال تعالي {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ }الجن١٩ وقال تعالي {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً }الإسراء١ وقال تعالي {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ }ص٤٥ عباد الله المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان وإذا كان عباد الله المخلصون ليس له عليهم سلطان وأن سلطانه علي الذين يتولونه والذين هم به مشركون وقد أقسم أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين وأخبر الله أن سلطانه ليس علي عباد الله بل علي من اتبعه من الغاوين والغي اتباع الأهواء والشهوات وأصل ذلك أن الحب لغير الله كحب الأنداد وذلك هو الشرك قال الله تعالي فيه {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ }النحل١٠٠ فبين أن صاحب الإخلاص مادام صادقا في إخلاصه فإنه يعتصم من هذا الغي وهذا الشرك وإن الغي هو يضعف الإخلاص ويقوي هواه الشرك [1]

الإنسان إما عابد لله أو عابد للشيطان

قال تعالي { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩-٦٥ الإنسان إما عابد لله أو عابد للشيطان ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده فلا بد أنه يكون عابدا لغيره يعبد غيره فيكون مشركا وليس في بني آدم قسم ثالث بل إما موحد أو مشرك أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل النصارى ومن أشبههم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام [2]

---

[1] قاعدة في المحبة ج: ١ ص:٧٦- ٧٨

[2] الحسنة والسيئة ج: ١ ص: ٥٦

فإن الله فى غير موضع اخبر أن المشركين عبدوا غير الله بل يعبدون الشيطان كما قال تعالى عن يوسف أنه قال {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ{٣٩} مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{٤٠}يوسف٣٩-٤٠ [1]

قال الله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{٩٨} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠}النحل٩٨-١٠٠ و قد قال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر٤٢ لما قال إبليس {لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠}الحجر ٣٩-٤٠ قال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر٤٢ فابليس لا يغوي المخلصين و لا سلطان له عليهم إنما سلطانه على الغاوين و هم الذين يتولونه و هم الذين به مشركون وقوله { الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ }النحل١٠٠ صفتان لموصوف واحد فكل من تولاه فهو به مشرك و كل من أشرك به فقد تولاه قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١}يس٦٠-٦١ وكل من عبد غير الله فانما يعبد الشيطان و ان كان يظن أنه يعبد الملائكة و الأنبياء و قال تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ {٤٠} قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ{٤١}سبأ٤٠-٤١ و لهذا تتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة و الأنبياء و الصالحين و يخاطبونهم فيظنون أن الذى خاطبهم ملك أو نبى أو ولي و انما هو شيطان جعل نفسه ملكا من الملائكة كما يصيب عباد الكواكب و أصحاب العزائم و الطلسمات يسمون أسماء يقولون هي أسماء الملائكة مثل منططرون و غيره وانما هي أسماء الجن وذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء و الأولياء و الملائكة قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه فيظنه النبى أو الصالح الذي دعاه و انما هو شيطان تصور فى صورته أو قال أنا هو لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو وهذا كثير يجري لمن يدعو المخلوقين من النصارى و من المنتسبين الى الاسلام يدعونهم عند قبورهم أو مغيبهم و يستغيثون بهم فيأتيهم من يقول انه ذلك المستغاث به فى صورة آدمي اما راكبا و اما غير راكب فيعتقد المستغيث أنه ذلك النبى و الصالح أو انه سره أو روحانيته أو رقيقته أو المعنى تشكل أو يقول انه ملك جاء على صورته و انما هو شيطان يغويه لكونه أشرك بالله و دعا غيره الميت فمن دونه فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك فظن أنه يدعو النبى أو الصالح أو الملك و أنه هو الذي شفع له أو هو الذي أجاب دعوته و انما هو الشيطان ليزيده غلوا فى كفره و ضلاله فكل من لم يعبد الله مخلصا له الدين فلابد أن يكون مشركا عابدا لغير الله و هو فى الحقيقة عابد للشيطان فكل واحد من بني آدم اما عابد للرحمن واما عابد للشيطان قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ {٣٦} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{٣٧} حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ{٣٨} وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ١٩٤

الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ{٣٩}الزخرف٣٦ -٣٩ و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }الحج١٧ فبنو آدم منحصرون فى الأصناف الستة و بسط هذا له موضع آخر[١]

لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التى أمرت بها الرسل

قد قال تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٦٠-٦٥ و قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً }النساء٣٦ {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ }الزمر١٧ {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }الزمر٣ وقال {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ }يونس١٨ فهذا و نحوه كثير فى القرآن لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التى أمرت بها الرسل وهي عبادته و حده لا شريك له والمشركون لايعبدون الله بل يعبدون الشيطان وما يدعونه من دون الله سواء عبدوا الملائكة أو الأنبياء والصالحين أو التماثيل والأصنام المصنوعة فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله تعالى كما أخبر الله بذلك فكيف يقال أن جميع الإنس والجن عبدوا الله لكون قدر الله جاريا عليهم والفرق ظاهر بين عبادتهم إياه التى تحصل بإرادتهم وأختيارهم وإخلاصهم الدين له وطاعة رسوله وبين أن يعبدهم هو وينفذ فيهم مشيئته وتكون عبادتهم لغيره للشيطان وللأصنام من المقدور وهذا يشبه قول من يقول من المتأخرين أنا كافر برب يعصى فيجعل كل ما يقع طاعة كما جعله هؤلاء عبادة لله تعالى لكونهم تحت المشيئة و كان بعض شيوخهم يقول عن إبليس إن كان عصى الأمر فقد أطاع المشيئة لكن هؤلاء مباحية يسقطون الأمر وأما زيد بن أسلم ووهب بن منبه و نحوهم فحاش لهم من مثل هذا فإنهم كانوا من أعظم الناس تعظيما للأمر و النهى و الوعد و الوعيد و لكن قصدوا الرد على المكذبين بالقدر القائلين بأنه يشاء مالا يكون و يكون ما لا يشاء و هؤلاء حقيقة قولهم أنه لايقدر على تعبيدهم و تصريفهم تحت مشيئته فأرادوا إبطال قول هؤلاء و نعم ما أرادوا لكن الكلام فيما أريد بالآية وقول أولئك الإباحية يشبه قول من قال إن العارف إذا شهد المشيئة سقط عنه الملام و أنه إذا شهد الحكم يعني المشيئة لم يستحسن و لم يستقبح سببه و نحو هذا من أقوال هؤلاءالذين تشبه أقوالهم أقوال المشركين الذين قالوا {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام١٤٨ كما قد بسط الكلام عليه و بين أن إثبات القدر السابق حق لكن ذلك هو الذي يصير العبد إليه ليس هو الذي فطر عليه كما قال النبى صلى الله عليه و سلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء فقد بين النبى صلى الله عليه و سلم بمثل ضربه أن البهيمة تولد سليمة ثم يجدع و الجدع كان مقدرا عليها كذلك العبد يولد على الفطرة سليما ثم يفسد بالتهود و التنصير و ذلك كان مكتوبا أن يكون وصاحب هذا القول إنما قاله ليبين ما خلقوا

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢٨٣-٢٨٦

له و قد قصد هذا طائفة فسروا العبادة بأمر و اقع عام و ليست هي العبادة المأمور بها على ألسن الرسل ففي تفسير إبن أبي طلحة المضاف إلى إبن عباس إلا ليقروا بالعبودية طوعا و كرها و هذه العبودية كقوله { وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً }آل عمران٨٣ و قوله {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً }الرعد١٥ و فسرت طائفة الكره بأنه جريان حكم القدر فيكون كالقول قبله و الصحيح أنه إنقيادهم لحكمه القدري بغير إختيارهم كإستسلامهم عند المصائب و إنقيادهم لما يكرهون من أحكامه الشرعية فكل أحد لابد له من إنقياده لحكمه القدري و الشرعي فهذا معنى صحيح قد بسط فى غير هذا الموضع لكن ليس هو العبادة و كذلك قال بعضهم إلا ليخضعوا لي و يتذللوا قالوا و معنى العبادة في اللغة التذلل و الإنقياد و كل مخلوق من الجن و الأنس خاضع لقضاء الله تعالى متذلل لمشيئته لا يملك أحد لنفسه خروجا عما خلق وقد ذكر أبو الفرج قول إبن عباس هذا قال و بيان هذا قوله {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }الزخرف٨٧ و هذه الآية توافق من قال إلا ليعرفون كما سيأتى و هؤلاءالذين أقروا بأن الله خالقهم لم يقروا بذلك كرها بخلاف إسلامهم و خضوعهم له فإنه يكون كرها و أما نفس الإقرار فهو فطرى فطروا عليه و بذلوه طوعا قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ }البينة٥ و قوله { وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً }التوبة٣١ و هذا إختيار الزجاج و غيره و هذا هو المعروف عن مجاهد بالإسناد الثابت قال إبن أبى حاتم ثنا أبو سعيد الأشج { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات٥٦ لآمرهم و أنهاهم كذلك روي عن الربيع بن أنس قال ما خلقتهما إلا للعبادة و يدل على هذا مثل قوله {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }القيامة٣٦ يعنى لايؤمر و لا ينهي و قوله {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ }الفرقان٧٧ أي لو لا عبادتكم و قوله {مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ }النساء١٤٧ و قوله {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا}الأنعام١٣٠ إلى قوله { وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ }الأنعام١٣١ و قوله {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١}يس٦٠-٦١ الآيات وما بعدها و قالت الجن لما سمعوا القرآن {يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ{٣١}الأحقاف٣٠-٣١ الآية و ما بعدها و قالت الجن {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً }الجن١٤ الآية و ما بعدها وقد قال فى القرآن فى غيرموضع {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ }البقرة٢١ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ }النساء١ فقد أمرهم بما خلقهم له و أرسل الرسل إلى الإنس و الجن و محمد أرسل إلى الثقلين و قرأ القرآن على الجن و قد روى أنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن و جعل يقرأ {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }الرحمن١٣ يقولون و لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعا و هو الذي تفهمه جماهير المسلمين و يحتجون بالآية عليه و يعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه لا ليضيعوا حقه و فى الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه و سلم قال له يامعاذ أتدري ما حق الله على عبادة قال الله و رسوله أعلم قال فإن حق الله على عبادة أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله و رسوله أعلم قال فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم و فى المسند عن إبن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله

و حده لا شريك له و جعل رزقى تحت ظل رمحي جعل الذل و الصغار على من خالف أمرى و من تشبه بقوم فهو منهم[1]

المؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر

قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩-٦٥ وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التى يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لئن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الايمان وفى رواية ما يتعاظم ان يتكلم به قال الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذى جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولابد لعامة الخلق من هذه الوساوس فمن الناس من يجيبها فصير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوساوس فى الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً }فاطر٦ ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً }الإسراء٨٢ وقال تعالى {هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ }آل عمران١٣٨ وقال تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة٢ وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً }التوبة١٢٤ وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{٩٨} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠}النحل٩٨-١٠٠ فان المستعيذ بالله مستجير به لاجىء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائذ بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ{٣٤} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٤٦- ٥٣

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{٣٥} وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{٣٦}فصلت٣٤ -٣٦ وفى الصحيحين عن النبى أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته فى ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبى كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماؤهم فعلماؤهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماؤهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة فى العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوساوس التى تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال إبن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض[١]

وقد روى محمد بن نصر المروزى بإسناده أن عبدالملك بن مروان كتب الى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل فأجابه عنها سألت عن الايمان فالإيمان هو التصديق أن يصدق العبد بالله وملائكته وما أنزل الله من كتاب وما أرسل من رسول وباليوم الآخر وسألت عن التصديق والتصديق أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه عرف أنه ذنب واستغفر الله وتاب منه ولم يصر عليه فذلك هو التصديق وتسأل عن الدين فالدين هو العبادة فإنك لن تجد رجلا من أهل الدين ترك عبادة أهل دين ثم لا يدخل فى دين آخر إلا صار لا دين له وتسأل عن العبادة والعبادة هى الطاعة ذلك أنه من أطاع الله فيما أمره به وفيما نهاه عنه فقد آثر عبادة الله ومن أطاع الشيطان فى دينه وعمله فقد عبد الشيطان ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ }يس٦٠ وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه فى دينهم[٢]

الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٢ -٢٨٥

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٥

فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة فالصلاة حق الحق فى الدنيا والآخرة والزكاة حق الخلق فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا فالذى شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد فى المعاش والمعاد وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد فى المعاش والمعاد فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان الى عباده كما قال تعالى {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى }النساء٣٦ وهذا أمر بمعالى الأخلاق وهو سبحانه يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها وقد روى عنه أنه قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق رواه الحاكم فى صحيحه وقد ثبت عنه فى الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال اليد العليا خير من اليد السفلى وقال اليد العليا هى المعطية واليد السفلى السائلة وهذا ثابت عنه فى الصحيح فأين الإحسان الى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم وأين التوحيد للخالق بالرغبة اليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراك به بالرغبة الى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله وأين صلاح العبد فى عبودية الله والذل له والافتقار اليه من فساده فى عبودية المخلوق والذل له والافتقار اليه فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التى تصلح أمور أصحابها فى الدنيا والآخرة ونهى عن الأنواع الثلاثة التى تفسد أمور أصحابها

ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول قال تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} يس ٦٠-٦٢[1]

الذنوب من الشرك فإنها طاعة للشيطان

فإن الإنسان حارث همام لابد له من عمل ولا بد له من مقصود يعمل لأجله وأن عمل لله ولغيره فهو شرك والذنوب من الشرك فإنها طاعة للشيطان قال { إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ }إبراهيم٢٢ الآية وقال{ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩-٦٥ وفى الحديث وشر الشيطان وشركه لكن إذا كان موحدا وفعل بعض الذنوب نقص توحيده كما قال لا يزنى الزانى إلخ ومن ليس بمؤمن فليس بمخلص وفى الحديث تعس عبدالدينار إلخ وحديث أبى بكر قل اللهم إنى أعوذ بك أن اشرك بك شيئا وأنا أعلم إلخ لكن إذا لم يعدل بالله غيره فيحبه مثل حب الله بل الله أحب إليه وأخوف عنده وأرجى من كل مخلوق فقد أخلص من الشرك الأكبر[2]

---

[1]مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٩٥-١٩٦ و مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٩٦

[2]مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٤١

كمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة

قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩ـ٦٥ قال صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله الا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهى حقيقة الأمر كله كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء٢٥ فأخبر سبحانه أنه يوحى الى كل رسول بنفى الالوهية عما سواه وإثباتها له وحده[1]

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران٨٥ وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات٥٦ فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا[2]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٦٠

[2] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣٢

قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩ـ٦٥ عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فاذا أمر بعبادة الله مطلقا دخل فى عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك فى مثل قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات٥٦ وفى قوله {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً }النساء٣٦ وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ }البقرة٢١ وقوله {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }الزمر٢ {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }الزمر١٤ وقوله { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ }الزمر٦٤ ثم قد يقرن بها اسم آخر كما فى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة٥ وقوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود١٢٣ وقول نوح { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }نوح٣ وكذلك ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{٧١} الصافات٦٩ ـ٧١ وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}الأحزاب٦٧ ـ٦٨ وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه١٢٣ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }النجم٢ وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة٧ وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ }القمر٤٧[1]

أصل وقوع السيئات من الانسان عدم العلم والغنى

قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩ـ٦٥ أن المحرمات جميعها من الكفر و الفسوق و العصيان إنما يفعلها العبد لجهله أو لحاجته فإنه إذا كان عالما بمضرتها و هو غني عنها امتنع أن يفعلها و الجهل أصله عدم و الحاجة أصلها العدم فأصل وقوع السيئات منه عدم العلم و الغنى و لهذا يقول فى القرآن { مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ} هود٢٠ { أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ }يس٦٢ { إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ{٦٩} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{٧٠}الصافات٦٩ـ٧٠ إلى نحو هذه المعاني وأما الموجود الذي هو سبب الشر الموجود الذي هو خاص كالآلام مثل الأفعال المحرمة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار و الفسوق الذي هو فعل المحرمات و نحو ذلك فإن ذلك سبب الذم و العقاب و كذلك تناول الأغذية الضارة و كذلك الحركات الشديدة المورثة للألم فهذا الوجود لايكون و جودا تاما محضا إذ الوجود التام المحض لا يورث إلا خيرا كما قلنا إن العدم المحض لايقتضي و جودا بل يكون و جودا ناقصا إما فى السبب و إما في المحل كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق و الاقرار به و سبب عدم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٣-١٦٧

هذا العلم والقول عدم أسبابه من النظر التام و الاستماع التام لآيات الحق و أعلامه وسبب عدم النظر و الاستماع إما عدم المقتضى فيكون عدما محضا و إما وجود مانع من الكبر أو الحسد فى النفس {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }الحديد٢٣ و هو تصور باطل و سببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل[١]

لفظ العقل فى القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة

قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩ـ٦٥ ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضا قائما بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلكم تعقلون وقوله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا }الحج٤٦ وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }آل عمران١١٨ ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلا وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا }الحج٤٦ والعقل المشروط فى التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام وميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التى فى الانسان التى بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن فى العين قوة بها يبصر وفى اللسان قوة بها يذوق وفى الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء[٢]

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة فى الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل فى القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة[٣]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص:٢٢- ٢٣

[٢] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٦

[٣] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{٥٩} أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٦٠} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{٦٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥}يس٥٩-٦٥ قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى }طه٥٤ أى العقول وقال تعالى {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ }الفجر٥ أى لذى عقل وقال تعالى { وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ }البقرة١٩٧ وقال {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ }الأنفال٢٢ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف٢ فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وقال تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }الأعراف١٧٩ وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }الفرقان٤٤[1]

ان الله سبحانه انطق الأشياء كلها نطقا معتادا ونطقا خارجا عن المعتاد

قال تعالى{ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥} يس٦٣-٦٥ ان الله سبحانه انطق الأشياء كلها نطقا معتادا ونطقا خارجا عن المعتاد قال تعالى{الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }يس٦٥ وقال تعالى { حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٢٠} وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢١} فصلت٢٠-٢١ وقال تعالى {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }النور٢٤ وقد قال تعالى {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ }ص١٨ وقد ثبت ان الحصى كان يسبح فى يد النبى وان الحجر كان يسلم عليه وأمثال ذلك من انطاق الجمادات[2]

البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٥٢٠ و الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢٩٤-٢٩٥

قال تعالى{ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥} يس٦٣-٦٥ البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن و لهذا يشهد البدن المعاد بما عمل فى الدنيا كما قال تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }يس٦٥ و قال تعالى { حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٢٠} وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٢١} فصلت٢١ -٢٢[١]

العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه

قال تعالى{ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ{٦٦} وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ{٦٧} وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ{٦٨} يس٦٦-٦٨ قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهى وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون[٢]

وصف الهرم بالضعف

قال تعالى{ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ{٦٦} وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ{٦٧} وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ{٦٨} يس٦٦-٦٨ فالشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب و لو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا ردا إلى أسفل سافلين فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف كقوله { ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً }الروم٥٤ و قوله {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ }يس٦٨ فهو يعيده إلى حال الضعف[٣]

من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٥٩

[٢] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨

[٣] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٨٥ و دقائق التفسير ج: ٣ ص: ١٥٥

قال تعالى{ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ{٦٦} وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ{٦٧} وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ{٦٨} يس٦٦-٦٨ قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى }طه٥٤ أى العقول وقال تعالى {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ }الفجر٥ أى لذى عقل وقال تعالى { وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ }البقرة١٩٧ وقال {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ }الأنفال٢٢ وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف٢ فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وقال تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }الأعراف١٧٩ وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }الفرقان٤٤ [1]

العقل يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم

قال تعالى{ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ{٦٦} وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ{٦٧} وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ{٦٨} يس٦٦-٦٨ ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضا قائما بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلكم تعقلون وقوله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا }الحج٤٦ وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }آل عمران١١٨ ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلا وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا }الحج٤٦ والعقل المشروط فى التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام وميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التى فى الانسان التى بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن فى العين قوة بها يبصر وفى اللسان قوة بها يذوق وفى الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٦

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة فى الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل فى القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة[1]

لطائف لغوية

١ـقال تعالى { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ} يس٥٨ ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار[2]

٢ـقال تعالى{ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{٦٣} اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٦٤} الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{٦٥} يس٦٣ـ٦٥ أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضر كما قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة٢٨٦ فبين سبحانه أن كسب النفس لها أوعليها و الناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك[3]

٣ـقال تعالى{ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ{٦٦} وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ{٦٧} يس٦٦ـ٦٧ الصراط في لغة العرب هو الطريق يقال هو الطريق الواضح ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه ومنه الصراط المنصوب على جهنم وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم[4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥

[3] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٨٧

[4] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٨١

يس ٦٩-٧٦

{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ{٦٩} لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ{٧٠} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ{٧١} وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ{٧٢} وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٧٣} وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ{٧٤} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ{٧٥} فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{٧٦}

الذكر الذي أنزله هو كتبه التي بعث بها رسله

قال تعالى لما أهبط آدم من الجنة { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{١٢٣} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{١٢٤} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{١٢٥} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{١٢٦} طه ١٢٣- ١٢٦ فقد أخبر أن من اتبع الهدى الذي أتانا منه وهو ما جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكره وهو الذكر الذي أنزله وهو كتبه التي بعث بها رسله بدليل أنه قال بعد ذلك { كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} طه ١٢٦ والذكر مصدر يضاف تارة إلى الفاعل وتارة إلى المفعول كما يقال دق الثوب ودق القصار ويقال أكل زيد وأكل الطعام ويقال ذكر الله أي ذكر العبد ويقال ذكر الله أي ذكر الله الذي ذكره هو مثل ذكره عبده ومثل القرآن الذي هو ذكره وقد يضاف الذكر إضافة الأسماء المحضة فقوله ذكرى إن أضيف إضافة المصادر كان المعنى الذكر الذي ذكرته وهو كلامه الذي أنزله وإن أضيف إضافة الأسماء المحضة فذكره هو ما اختص به من الذكر والقرآن مما اختص به من الذكر[1]

و ذكر الله يراد به تارة ذكر العبد ربه ويراد به الذكر الذى أنزله الله كما قال تعالى {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ }الأنبياء٥٠ وقال نوح {أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ }الأعراف٦٣ وقال {وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ }الحجر٦ وقال {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ }الأنبياء٢ وقال {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}الزخرف٤٤ وقال { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{٢٧} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{٢٨} التكوير ٢٧-٢٨ وقال {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ }يس٦٩ وقال{بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ }النحل٤٤[2]

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص:١٥٥- ١٥٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٦١-٥٦٢

ذكر الله تعالى الفرق بين القرآن والشعر

فالسحر أمر معتاد في بني آدم كما أن النبوة معتادة في بني آدم والمجانين معتادون فيهم فاذا قالوا عن الشخص انه مجنون فانه يعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله وكذلك يعرف هل هو من جنس الانبياء أو من جنس السحرة وكذلك لما قالوا عن محمد انه شاعر فان الشعراء جنس معروفون في الناس وقالوا إنه كاهن وشبهة الشعر أن القرآن كلام موزون والشعر موزون وشبهة الكهانة أن الكاهن يخبر ببعض الامور الغائبة فذكر الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبي فقال قال تعالى{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ}يس٦٩ [١]

الذكر خلاف الشعر فإنه حق وعلم يذكره القلب

قال تعالى{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ{٦٩} لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ{٧٠}يس٦٩ ـ٧٠

فالذكر خلاف الشعر فإنه حق وعلم يذكره القلب وذاك شعر يحرك النفس فقط ولهذا غلب على منحرفة المتصوفة الإعتياض بسماع القصائد والأشعار عن سماع القرآن والذكر فإنه يعطيهم مجرد حركة حب أو غيره من غير أن يكون ذلك تابعا لعلم وتصديق ولهذا يؤثره من يؤثره على سماع القرآن ويعتل بأن القرآن حق نزل من حق والنفوس تحب الباطل وذلك لأن القول الصدق والحق يعطى علما واعتقادا بحملة القلب والنفوس المبطلة لا تحب الحق ولهذا أثره باطل يتفشى من النفس فإنه فرع لا أصل له ولكن له تأثير فى النفس من جهة التحريك والإزعاج والتأثير لا من جهة التصديق والعلم[٢]

وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات في جميع الأمور فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به كمن عمد إلى كلام الله الذي أنزله وأمر باستماعه فعدل به سماع بعض الاشعار وقد روى عن النبي ص أنه قال فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه رواه الترمذي وغيره وروى أيضا عنه ما تقرب العباد إلى الله بشئ أحب إليه مما خرج منه يعني القرآن وهذا محفوظ عن خباب بن الأرت أحد المهاجرين الأولين السابقين قال يا هناه تقرب إلى الله بما استطعت فلن يتقرب إليه بشئ احب اليه من كلامه فإذا عدل بذلك ما نزه الله عنه ورسوله بقوله { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ}يس٦٩ وجعله قرآنا للشيطان كما في الحديث فما قرآني قال الشعر كان هذا عدل كلام الرحمن بكلام الشيطان وهذا قد جعل الشيطان عدلا للرحمن فهو من جنس الذين قال الله فيهم { فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ{٩٤} وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ{٩٥} قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ{٩٦} تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي

---

[١] النبوات ج: ١ ص: ٢٢
[٢] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٣

ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٩٧} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{٩٨} وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ{٩٩} الشعراء ٩٤- ٩٨[1]

أصل صلاح القلب هو حياته واستنارته

قال تعالى{ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ }يس٧٠ أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو انحراف المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ولكن الأمثل فالأمثل فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس و الظلم ثلاثة أنواع والظلم كله من أمراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها قال أحمد بن حنبل لبعض الناس لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}الأنعام١٢٢ لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها فى غير موضع كقوله قال تعالى{ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ }يس٧٠ وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ }الأنفال٢٤ ثم قال { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }الأنفال٢٤ وقال تعالى { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ }يونس٣١ ومن انواعه انه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وفى الحديث الصحيح مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت وفى الصحيح ايضا اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا وقد قال تعالى {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ }الأنعام٣٩ وذكر سبحانه آية النور آية الظلمة فقال {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ }النور٣٥ فهذا مثل نور الايمان فى قلوب المؤمنين ثم قال {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ {٣٩} أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ{٤٠}النور٣٩-٤٠ فالأول مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئا ينفعه فاذا جاءها لم يجدها شيئا ينفعه فوفاه الله حسابه على تلك الاعمال والثانى مثل للجهل البسيط وعدم الايمان والعلم فان صاحبها فى ظلمات بعضها فوق بعض لايبصر شيئا فان البصر إنما هو بنور الايمان والعلم قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ }الأعراف٢٠١[2]

---

[1] الاستقامة ج: ١ ص: ٣٤٥

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٠٠-١٠١ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٨

القلب الحي يهتدى بالقرآن والعلم والإنذار

أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه و إنذاره و بيانه يحصل الهدى و لو كان أكمل الناس و أن الداعى و إن كان صالحا ناصحا مخلصا فقد لا يستجيب المدعو لا لنقص فى الدعاء لكن لفساد فى المدعو و هذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل و قبول القابل كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه لا يقطع الحجارة و الحديد و نحو ذلك و النفخ يؤثر إذ كان هناك قابل لا يؤثر في الرماد و الدعاء و التعليم و الإرشاد و كل ما كان من هذا الجنس له فاعل و هو المتكلم بالعلم و الهدى و النذارة و له قابل و هو المستمع فإذا كان المستمع قابلا حصل الإنذار التام و التعليم التام و الهدى التام و إن لم يكن قابلا قيل علمته فلم يتعلم و هديته فلم يهتد و خاطبته فلم يصغ و نحو ذلك فقوله في القرآن {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}البقرة٢ هو من هذا إنما يهتدي من يقبل الإهتداء و هم المتقون لا كل أحد و ليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم بل قد يكونوا كفارا لكن إنما يهتدى به من كان متقيا فمن إتقى الله إهتدى بالقرآن و العلم و الإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن و هكذا قوله {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً }يس٧٠ الإنذار التام فإن الحي يقبله و لهذا قال { وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ }يس٧٠ فهم لم يقبلوا الإنذار و مثله قوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات٤٥ و عكسه قوله {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ }البقرة٢٦ أي كل من ضل به فهو فاسق فهو ذم لمن يضل به فإنه فاسق ليس أنه كان فاسقا قبل ذلك و لهذا تأولها سعد بن أبى و قاص في الخوارج و سماهم فاسقين لأنهم ضلوا بالقرآن فمن ضل بالقرآن فهو فاسق[1]

فيه حكمة أخرى غير الإنذار

قال تعالى{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ{٦٩} لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ{٧٠}يس٦٩ -٧٠

ومعلوم أن فيه حكمة أخرى غير الإنذار وفي ذلك حكم أخرى ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله{لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{٦} سورة يس الآية ٦ فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٨٧-٥٨٨

[2] الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٣٥

الألفاظ نوعان

قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ{٧١} وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ{٧٢} وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٧٣} وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ{٧٤} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ{٧٥} فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{٧٦} يس ٧١-٧٦

أن الألفاظ نوعان أحدهما ما معناه مفرد كلفظ الأسد والحمار والبحر والكلب فذه إذا قيل أسد الله وأسد رسوله أو قيل للبليد حمار أو للعالم أو السخى أو الجواد من الخيل بحر أو قيل للأسد كلب فهذا مجاز ثم إن قرنت به قرينة تبين المراد كقول النبى صلى الله عليه وسلم لفرس أبى طلحة إن وجدناه لبحرا وقوله إن خالدا سيف من سيوف الله سلة الله على المشركين وقوله لعثمان إن الله يقمصك قميصا وقول ابن عباس الحجر الأسود يمين الله فى الأرض فمن استلمه وصافحه فكأنما بايع ربه أو كما قال ونحو ذلك فهذا اللفظ فيه تجوز وإن كان قد ظهر من اللفظ مراد صاحبه وهو محمول على هذا الظاهر فى إستعمال هذا المتكلم لا على الظاهر فى الوضع الأول وكل من سمع هذا القول علم المراد به وسبق ذلك الى ذهنه بلا حال إرادة المعنى الأول وهذا يوجب أن يكون نصا لا محتملا وليس حمل اللفظ على هذا المعنى من التأويل الذى هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح الى الإحتمال المرجوح فى شيء وهذا أحد مثارات غلط الغالطين فى هذا الباب حيث يتوهم أن المعنى المفهوم من هذا اللفظ مخالف للظاهر وأن اللفظ متنول النوع الثانى من الألفاظ ما فى معناه إضافة إما بأن يكون المعنى إضافة محضة كالعلو والسفول وفوق وتحت ونحو ذلك أو أن يكون معنا ثبوتيا فيه إضافة كالعلم والحب والقدرة والعجز

والسمع والبصر فهذا النوع من الألفاظ لا يمكن أن يوجد له معنى مفرد بحسب بعض موارده لوجهين أحدهما أنه لم يستعمل مفردا قط الثانى أن ذلك يلزم منه الإشتراك أو المجاز بل يجعل حقيقة فى القدر المشترك بين موارده وما نحن فيه من هذا الباب فان لفظ استوى لم تستعمله العرب فى خصوص جلوس الآدمى مثلا على سرية حقيقة حتى يصير فى غيره مجازا كما أن لفظ العلم لم تستعمله العرب فى خصوص العرف القائم بقلب البشر المنقسم الى ضرورى و نظرى حقيقة واستعملته فى غيره مجازا بل المعنى تارة يستعمل بلا تعدية كما فى قوله {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى }القصص١٤ وتارة يعدى بحرف الغاية كما فى قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ }فصلت١١ وتاره يعدى بحرف الإستعلاء ثم هذا تارة يكون صفة الله وتارة يكون صفة لخلقة فلا يجب أن يجعل فى أحد الموضعين حقيقة وفى الآخر مجازا ولا يجوز أن يفهم من استواء الله الخاصية التى تثبت للمخلوق دون الخالق كما فى قوله تعالى {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ }الذاريات٤٧ وقوله تعالى { مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا }يس٧١ وقوله تعالى { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل٨٨ وقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ }الأعراف١٤٥ فهل يستحل مسلم أن يثبت لربه خاصيه الآدمى البانى الصانع الكاتب العامل أم يستحل أن ينفى عنه حقيقة العمل والبناء كما يختص به ويليق بجلاله أم يستحل أن يقول هذه الألفاظ مصروفة عن ظاهرها أم الذى يجب أن يقول عمل كل أحد بحسبه فكما أن ذاته ليست مثل ذوات خلقه فعمله وصنعه وبناؤه ليس مثل عملهم وصنعهم وبنائهم ونحن لم نفهم من قولنا بنى فلان وكتب فلان ما فى عمله من المعالجة والتأثر إلا من جهة علمنا بحال البانى لا من جهة مجرد اللفظ الذى هو لفظ الفعل وما يدل عليه بخصوص إضافته الى الفاعل المعين وبهذا ينكشف لك كثير مما يشكل على

كثير من الناس وترى مواقع اللبس فى كثير من هذا الباب والله يوفقنا وسائر إخواننا المسلمين لما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويجمع قلوبنا على دينه الذى ارتضاه لنفسه وبعث به رسوله والحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وصلى الله على محمد صاحب الحوض المورود وعلى أله وصحبه وسلم تسليما كثيرا[1]

أن لله تعالى يدين مختصتان به ذاتيتان له كما يليق بجلاله

وقد قال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ }المائدة٦٤ وقال تعالى لابليس { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ وقال تعالى {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ }الزمر٦٧ وقال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ }الملك١ وقال { بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }آل عمران٢٦ وقال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ }يس٧١ وقد تواتر فى السنة مجىء اليد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم فالمفهوم من هذا الكلام أن لله تعالى يدين مختصتان به ذاتيتان له كما يليق بجلاله وأنه سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة وابليس وأنه سبحانه يقبض الارض ويطوى السموات بيده اليمنى وان { يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ }المائدة٦٤ ومعنى بسطهما بذل الجود وسعة العطاء لان الاعطاء والجود فى الغالب يكون ببسط اليد ومدها وتركه يكون ضما لليد الى العنق صار من الحقائق العرفية اذا قيل هو مبسوط اليد فهم منه يد حقيقة وكان ظاهره الجود والبخل كما قال تعالى {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ }الإسراء٢٩ ويقولون فلان جعد البنان وسبط البنان قلت له فالقائل ان زعم أنه ليس له يد من جنس ايدى المخلوقين وأن يده ليست جارحة فهذا حق وان زعم أنه ليس له يد زائدة على الصفات السبع فهو مبطل فيحتاج الى تلك المقامات الاربعة أما الأول فيقول أن اليد تكون بمعنى النعمة والعطية تسمية للشىء باسم سببه كما يسمى المطر والنبات سماء ومنه قولهم لفلان عنده أياد وقول ابى طالب لما فقد النبى يا رب رد راكبى محمدا رده على واصطنع عندى يدا قول عروة بن مسعود لابى بكر يوم الحديبي لولا يد لك عندى لم أجزك بها لأجبتك وقد تكون اليد بمعنى القدرة تسمية للشىء باسم مسببه لأن القدرة هى تحرك اليد يقولون فلان له يد فى كذا وكذا ومنه قوله زياد لمعاوية انى قد امسكت العراق باحدى يدى ويدى الاخرى فارغة يريد نصف قدرتى ضبط العراق ومنه قوله { بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ }البقرة٢٣٧ والنكاح كلام يقال وانما معناه انه مقتدر عليه وقد يجعلون اضافة الفعل اليها اضافة الفعل الى الشخص نفسه لان غالب الافعال لما كانت باليد جعل ذكر اليد اشارة الى أنه فعل بنفسه قال الله تعالى {لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ{١٨١} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ }آل عمران١٨١- ١٨٢ أى بما قدمتم فان بعض ما قدموه كلام تكلموا به وكذلك قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣٣ ص:١٨٣- ١٨٦

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ{٤٩} وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ{٥٠} الانفال ٥٠ الى قوله { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ{٥١} الانفال ٥١ والعرب تقول يداك أوكتا وفوك نفخ توبيخا لكل من جر على نفسه جريرة لأن اول ما قيل هذا لمن فعل بيديه وفمه قلت له ونحن لا ننكر لغة العرب التى نزل بها القرآن فى هذا كله والمتأولون للصفات الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وألحدوا فى أسمائه وآياته تأولوا قوله { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ }المائدة٦٤ وقوله { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ على هذا كله فقالوا ان المراد نعمته أى نعمة الدنيا ونعمة الاخرة وقالوا بقدرته وقالوا اللفظ كناية عن نفس الجود من غير ان يكون هناك يد حقيقة بل هذه اللفظة قد صارت حقيقة فى العطاء والجود وقوله {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ أى خلقته انا وان لم يكن هناك يد حقيقة قلت له فهذه تأويلاتهم قال نعم قلت له فننظر فيما قدمنا المقام الاول أن لفظ اليدين بصيغة التثنية لم يستعمل فى النعمة ولا فى القدرة لان من لغة القوم استعمال الواحد فى الجمع كقوله {إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ }العصر٢ ولفظ الجمع فى الواحد كقوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ }آل عمران١٧٣ ولفظ الجمع فى الاثنين كقوله { صَغَتْ قُلُوبُكُمَا }التحريم٤ لأن هذه الالفاظ عدد وهى نصوص فى معناها لا يتجوز بها ولا يجوز أما استعمال لفظ الواحد ان يقال عندى رجل ويعنى رجلين ولا عندى رجلان ويعنى به الجنس لان اسم الواحد يدل على الجنس والجنس فيه شياع وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس والجنس يحصل بحصول الواحد فقوله { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ لا يجوز أن يراد به القدرة لان القدرة صفة واحدة ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد ولا يجوز أن يراد به النعمة لان نعم الله لا تحصى فلا يجوز أن يعبر عن النعم التى لا تحصى بصيغة التثنية ولا يجوز أن يكون لما خلقت أنا لانهم اذا أرادوا ذلك اضافوا الفعل الى اليد فتكون اضافته الى اليد اضافة له الى الفعل كقوله { بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ }الحج١٠ و { قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ }آل عمران١٨٢ ومنه قوله {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً }يس٧١ اما اذا اضاف الفعل الى الفاعل وعدى الفعل الى اليد بحرف الباء كقوله { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ فانه نص فى أنه فعل الفعل بيديه ولهذا لا يجوز لمن تكلم أو مشى أن يقال فعلت هذا بيديك ويقال هذا فعلته يداك لان مجرد قوله فعلت كاف فى الاضافة الى الفاعل فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة ولست تجد فى كلام العرب ولا العجم ان شاء الله تعالى ان فصيحا يقول فعلت هذا بيدى او فلان فعل هذا بيديه الا ويكون فعله بيديه حقيقة ولا يجوز ان يكون لا يد له أو أن يكون له يد والفعل وقع بغيرها وبهذا الفرق المحقق تتبين مواضع المجاز ومواضع الحقيقة ويتبين أن الايات لا تقبل المجاز البته من جهة نفس اللغة قال لى فقد اوقعوا الاثنين موقع الواحد فى قوله {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ }ق٢٤ وانما هو خطاب للواحد قلت له هذا ممنوع بل قوله القيا قد قيل تثنية الفاعل لتثنية الفعل والمعنى الق الق وقد قيل انه خطاب للسائق والشهيد ومن قال أنه خطاب للواحد قال ان الانسان يكون معه اثنان أحدهما عن يمينه والاخر عن شماله فيقول خليلى خليلى ثم أنه يوقع هذا الخطاب وان لم يكونا موجودين كأنه يخاطب موجودين فقوله القيا عند هذا القائل انما هو خطاب لاثنين يقدر وجودهما فلا حجة فيه البتة قلت له المقام الثانى ان يقال هب أنه يجوز ان يعنى باليد حقيقة اليد وان يعنى بها القدرة أو النعمة أو يجعل ذكرها كناية عن الفعل لكن ما لموجب لصرفها عن الحقيقة فان قلت لأن اليد هى الجارحة وذلك ممتنع على الله سبحانه قلت لك هذا ونحوه يوجب امتناع وصفه بأن له يدا من جنس ايدى المخلوقين وهذا لا ريب فيه لكن لم لا يجوز ان يكون له يد تناسب ذاته تستحق من صفات الكمال ما تستحق الذات قال ليس فى العقل والسمع ما يحيل هذا قلت فاذا كان هذا ممكنا وهو حقيقة اللفظ فلم يصرف عنه اللفظ الى مجازه وكل ما يذكره الخصم من دليل يدل على امتناع

وصفه بما يسمى به وصحت الدلالة سلم له ان المعنى الذى يستحقه المخلوق منتف عنه وانما حقيقة اللفظ وظاهره يد يستحقها الخالق كالعلم والقدرة بل كالذات والوجود المقام الثالث قلت له بلغك ان فى كتاب الله او فى سنة رسول الله أو عن أحد من ائمة المسلمين أنهم قالوا المراد باليد خلاف ظاهره او الظاهر غير مراد او هل فى كتاب الله آية تدل على انتفاء وصفه باليد دلالة ظاهرة بل أو دلالة خفية فان اقصى ما يذكره المتكلف قوله { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } الاخلاص١ وقوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى١١ وقوله { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم٦٥ وهؤلاء الايات انما يدللن على انتفاء التجسيم والتشبيه واما انتفاء يد تليق بجلاله فليس فى الكلام ما يدل عليه بوجه من الوجوه وكذلك هل فى العقل ما يدل دلالة ظاهرة على أن البارى لا يد له البتة لا يدا تليق بجلاله ولا يدا تناسب المحدثات وهل فيه ما يدل على ذلك اصلا ولو بوجه خفى فاذا لم يكن فى السمع ولا فى العقل ما ينفى حقيقة اليد البتة وان فرض ما ينافيها فانما هو من الوجوه الخفية عند من يدعيه والا ففى الحقيقة انما هو شبهة فاسدة فهل يجوز ان يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد وان الله تعالى خلق بيده وان يداه مبسوطتان وان الملك بيده وفى الحديث ما لا يحصى ثم أن رسول الله واولى الامر لا يبينون للناس ان هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره حتى ينشأ جهم بن صفوان بعد انقراض عصر الصحابة فيبين للناس ما نزل اليهم على نبيهم ويتبعه عليه بشر بن غياث ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليه بالنفاق وكيف يجوز ان يعلمنا نبينا كل شيء حتى الخراءة ويقول ما تركت من شيء يقربكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به ولا من شيء يبعدكم عن النار الا وقد حدثتكم به تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك ثم يترك الكتاب المنزل عليه وسنته الغراء مملوءة مما يزعم الخصم أن ظاهره تشبيه وتجسيم وان اعتقاد ظاهره ضلال وهو لا يبين ذلك ولا يوضحه وكيف يجوز للسلف أن يقولوا امروها كما جاءت مع أن معناها المجازى هو المراد وهو شيء لا يفهمه العرب حتى يكون ابناء الفرس والروم اعلم بلغة العرب من ابناء المهاجرين والانصار المقام الرابع قلت له أنا اذكر لك من الادلة الجلية القاطعة والظاهرة ما يبين لك أن الله يدين حقيقة فمن ذلك تفضيله لآدم يستوجب سجود الملائكة وامتناعهم عن التكبر عليه فلو كان المراد انه خلقه بقدرته او بنعمته او مجرد اضافة خلقه اليه لشاركه فى ذلك ابليس وجميع المخلوقات قال لى فقد يضاف الشيء الى الله على سبيل التشريف كقوله ناقة الله وبيت الله قلت له لا تكون الاضافة تشريفا حتى يكون فى المضاف معنى أفرده به عن غيره فلو لم يكن فى الناقة والبيت من الايات البينات ما تمتاز به على جميع النوق والبيوت لما استحقا هذه الاضافة والامر هنا كذلك فاضافة خلق آدم اليه أنه خلقه بيديه يوجب أن يكون خلقه بيديه انه قد فعله بيديه وخلق هؤلاء بقوله كن فيكون كما جاءت به الاثار ومن ذلك انهم اذا قالوا بيده الملك او عملته يداك فهما شيئان أحدهما اثبات اليد و الثانى اضافة الملك والعمل اليها و الثانى يقع فيه التجوز كثيرا اما الاول فانهم لا يطلقون هذا الكلام الا لجنس له يد حقيقة ولا يقولون يد الهوى ولا يد الماء فهب أن قوله بيده الملك قد علم منه ان المراد بقدرته لكن لا يتجوز بذلك الا لمن له يد حقيقة والفرق بين قوله تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ وقوله { مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا }يس٧١ من وجهين أحدهما انه هنا اضاف الفعل اليه وبين انه خلقه بيديه وهناك أضاف الفعل الى الايدى الثانى ان من لغة العرب انهم يضعون اسم الجمع موضع التثنية اذا أمن اللبس كقوله تعالى {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا }المائدة٣٨ أى يديهما وقوله { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا }التحريم٤ أى قلباكما فكذلك قوله { مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا }يس٧١ واما السنة فكثيرة جدا مثل قوله المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون حكمهم واهليهم وما ولوا

رواه مسلم وقوله يمين الله ملآى لا يغيظها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم يغض ما فى يمينه والقسط بيده الاخرى يرفع ويخفض الى يوم القيامة رواه مسلم فى صحيحه والبخارى فيما أظن وفى الصحيح ايضا عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله قال تكون الارض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم بيده خبزته فى السفر وفى الصحيح أيضا عن ابن عمر يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يأخذ الرب عز وجل سماواته وأرضه بيديه وجعل يقبض يديه ويبسطهما ويقول أنا الرحمن حتى نظرت الى المنبر يتحرك اسفل منه حتى أنى اقول اساقط هو برسول الله وفى روايه أنه قرأ هذه الاية على المنبر {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الزمر ٦٧ قال يقول انا الله انا الجبار وذكره وفى الصحيح ايضا عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله يقبض الله الارض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول انا الملك أين ملوك الارض وما يوافق هذا من حديث الحبر وفى حديث صحيح ان الله لما خلق آدم قال له ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت قال اخترت يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين مباركة ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته وفى الصحيح أن الله كتب بيده على نفسه لما خلق الخلق ان رحمتى تغلب غضبى وفى الصحيح أنه لما تحاج ادم وموسى قال ادم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده وقد قال له موسى انت ادم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وفى حديث آخر انه قال سبحانه وعزتى وجلالى لا اجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان وفى حديث آخر فى السنن لما خلق آدم ومسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره بيده الاخرى فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فذكرت له هذه الاحاديث وغيرها ثم قلت له هل تقبل هذه الاحاديث تأويلا ام هى نصوص قاطعة وهذه احاديث تلقتها الامة بالقبول والتصديق ونقلتها من بحر غزير فأظهر الرجل التوبة وتبين له الحق فهذا الذى اشرت اليه احسن الله اليك ان اكتبه وهذا باب واسع { وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ } النور ٤٠ و { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً } الكهف١٧ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1]

نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين وصفاته ليست كصفات المخلوقين

قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ {٧١} وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ {٧٢} وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ {٧٣} وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ {٧٤} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ {٧٥} فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ {٧٦} يس ٧١-٧٦ إذا قال القائل ظاهر النصوص مراد أو ظاهرها ليس بمراد فإنه يقال لفظ الظاهر فيه إجمال وإشتراك فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب أن هذا غير مراد ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٣٦٢-٣٧٢

هذا ظاهرها ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرا وباطلا والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم من ان يكون كلامه الذى وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر أو ضلال والذين يجعلون ظاهرها ذلك يغلطون من وجهين تارة يجعلون المعنى الفاسد ظاهر اللفظ حتى يجعلوه محتاجا الى تأويل يخالف الظاهر ولا يكون كذلك وتارة يردون المعنى الحق الذى هو ظاهر اللفظ لاعتقادهم أنه باطل فالأول كما قالوا فى قوله عبدى جعت فلم تطعمنى الحديث وفى الأثر الآخر الحجر الأسود يمين الله فى الأرض فمن صافحه أو قبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه وقوله قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن فقالوا قد علم أن ليس فى قلوبنا أصابع الحق فيقال لهم لو أعطيتم النصوص حقها من الدلالة لعلمتم أنها لم تدل إلا على حق أما الواحد فقوله الحجر الأسود يمين الله فى الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه صريح فى ان الحجر الأسود ليس هو صفة لله ولا هو نفس يمينه لأنه قال يمين الله فى الارض وقال فمن قبله وصافحه فكأنما صافح الله وقبل يمينه ومعلوم أن المشبه ليس هو المشبه به ففى نفس الحديث بيان أن مستلمه ليس مصافحا لله وأنه ليس هو نفس يمينه فكيف يجعل ظاهره كفرا لأنه محتاج الى التأويل مع ان هذا الحديث إنما يعرف عن ابن عباس وأما الحديث الآخر فهو فى الصحيح مفسرا يقول الله عبدى جعت فلم تطعمنى فيقول رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدى فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى عبدى مرضت فلم تعدنى فيقول رب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتنى عنده وهذا صريح فى ان الله سبحانه لم يمرض ولم يجع ولكن مرض عبده وجاع عبده فجعل جوعه جوعه ومرضه ومرضه مفسرا ذلك بأنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ولو عدته لوجدتنى عنده فلم يبق فى الحديث لفظ يحتاج إلى تأويل وأما قوله قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن فإنه ليس فى ظاهره أن القلب متصل بالأصابع ولا مماس لها ولا أنها فى جوفه ولا فى قول القائل هذا بين يدى ما يقتضى مباشرته ليديه وإذا قيل السحاب المسخر بين السماء والأرض لم يقتض أن يكون مماسا للسماء والأرض ونظائر هذا كثيرة ومما يشبه هذا القول أن يجعل اللفظ نظيرا لما ليس مثله كما قيل فى قوله {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ فقيل هو مثل قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً}يس٧١ فهذا ليس مثل هذا لأنه هنا أضاف الفعل الى الأيدى فصار شبيها بقوله { فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ }الشورى٣٠ و أن يجعل اللفظ نظيرا لما ليس مثله كما قيل فى قوله {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص٧٥ فقيل هو مثل قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً}يس٧١ فهذا ليس مثل هذا لأنه هنا أضاف الفعل الى الأيدى فصار شبيها بقوله { فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ }الشورى٣٠ وهنا اضاف الفعل اليه فقال { لِمَا خَلَقْتُ}ص٧٥ ثم قال { بِيَدَيَّ }ص٧٥ وأيضا فإنه هنا ذكر نفسه المقدسة بصيغة المفرد وفى اليدين ذكر لفظ التثنية كما فى قوله {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}المائدة٦٤ وهناك أضاف الأيدى الى صيغة الجمع فصار كقوله {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا }القمر١٤ وهذا فى الجمع نظير قوله { بِيَدِهِ الْمُلْكُ }الملك١ { بِيَدِكَ الْخَيْرُ }آل عمران٢٦ فى المفرد فالله سبحانه وتعالى يذكر نفسه تارة بصيغة المفرد مظهرا أو مضمرا وتارة بصيغة الجمع كقوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً }الفتح١ وأمثال ذلك ولا يذكر نفسه بصيغة التثنية قط لأن صيغة المفرد و الجمع تقتضى التعظيم الذى يستحقه وربما تدل على معانى أسمائه وأما صيغة التثنية فتدل على العدد المحصور وهو مقدس عن ذلك فلو قال {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}ص٧٥ لما كان كقوله { مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا }يس٧١ وهو

نظير قوله { بِيَدِهِ الْمُلْكُ }الملك١ و{ بِيَدِكَ الْخَيْرُ }آل عمران٢٦ ولو قال خلقت بصيغة الإفراد لكان مفارقا له فكيف اذا قال خلقت بيدى بصيغة التثنية

هذا مع دلالات الأحاديث المستفيضة بل المتواترة وإجماع السلف على مثل ما دل عليه القرآن كما هو مبسوط فى موضعه مثل قوله المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا وأمثال ذلك وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع فى معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها والظاهر هو المراد فى الجميع فإن الله لما أخبر انه بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير واتفق اهل السنة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره وان ظاهر ذلك مراد كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر ان يكون علمه كعلمنا وقدرته كقدرتنا وكذلك لما اتفقوا على انه حى حقيقة عالم حقيقة قادر حقيقة لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذى هو حى عليم قدير فكذلك اذا قالوا فى قوله تعالى يحبهم ويحبونه رضى الله عنهم ورضوا عنه وقوله ثم استوى على العرش انه على ظاهره لم يقتض ذلك أن يكون ظاهره إستواءا كاستواء المخلوق ولا حبا كحبه ولا رضا كرضاه فان كان المستمع يظن ان ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين لزمه ان لا يكون شيء من ظاهر ذلك مرادا وان كان يعتقد ان ظاهرها ما يليق بالخالق ويختص به لم يكن له نفى هذا الظاهر ونفى ان يكون مرادا إلا بدليل يدل على النفى وليس فى العقل ولا السمع ما ينفى هذا إلا من جنس ما ينفى به سائر الصفات فيكون الكلام فى الجميع واحدا وبيان هذا ان صفاتنا منها ما هى أعيان وأجسام وهى أبعاض لما كالوجه واليد ومنها ما هو معان وأعراض وهى قائمة بنا كالسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة ثم ان من المعلوم ان الرب لما وصف نفسه بأنه حى عليم قدير لم يقل المسلمون إن ظاهر هذا غير مراد لأن مفهوم ذلك فى حقه مثل مفهومه فى حقنا فكذلك لما وصف نفسه بأنه خلق آدم بيديه لم يوجب ذلك أن يكون ظاهره غير مراد لأن مفهوم ذلك فى حقه كمفهومه فى حقنا بل صفة الموصوف تناسبه فاذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين فصفاته كذاته ليست كصفات المخلوقين ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق اليه وليس المنسوب كالمنسوب ولا المنسوب اليه كالمنسوب اليه كما قال ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر فشبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئى بالمرئى[1]

وصف الله سبحانه نفسه بالعمل ووصف عبده بالعمل وليس العمل كالعمل

قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ{٧١} وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ{٧٢} وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٧٣} وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ{٧٤} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ{٧٥} فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{٧٦} يس٧١-٧٦ سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأ سماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٣

وتماثل مسماهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مسماهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمى الله نفسه حيا فقال {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }البقرة٢٥٥ وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }الروم١٩ وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ }الروم١٩ اسم للحى المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطق مسمى موجود فى الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه فوصف نفسه بالعمل فقال {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ }يس٧١ ووصف عبده بالعمل فقال {جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }الواقعة٢٤ وليس العمل كالعمل[1]

الحزن لم يأمر الله به ولا رسوله

قال تعالى {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ{٧٤} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ{٧٥} فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{٧٦} يس ٧٤-٧٦

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال أحد وإن ارتقى مقامه وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين كقوله تعالى {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران١٣٩ وقوله {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ }النمل٧٠ وقوله { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة٤٠ وقوله {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ }يونس٦٥ وقوله { لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ }المائدة٤١ وقوله {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ }الحديد٢٣ وأمثال ذلك كثير وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا أو يرحم وأشار بيده إلى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب

ولا نقول الا ما يرضي الرب ومنه قوله تعالى {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ }يوسف٨٤ وقد تبين بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة فى دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما فى قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك اذا افضى الى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه والا كان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٤

حسب صاحبه رفع الاثم عنه من جهة الحزن واما ان افضى الى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما امر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وان كان محمودا من جهة اخرى واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهى حسنة محبوبة فى حق كل احد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك ان اراد خروج الخاصة عنها فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وانما يخرج عنها كافر او منافق وقد تكلم بعضهم فى ذلك بكلام بينا غلطه فيه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه[1]

لطائف لغوية

١ -قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ{٧١} وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ{٧٢} وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٧٣} وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ{٧٤} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ{٧٥} فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{٧٦} يس ٧١-٧٦ قال سبحانه { فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ {٦٩}التوبة وفي الذي وجهان أحسنهما أنها صفة المصدر أي كالخوض الذي خاضوه فيكون العائد محذوفا كما في قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ }يس ٧١ وهو كثير فاش في اللغة[2]

٢ -قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ{٧١} وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ{٧٢} وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{٧٣} وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ{٧٤} لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ{٧٥} فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{٧٦} يس ٧١-٧٦ و قال تعالى { فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ }يس ٧١ و قال تعالى {وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ }الزخرف١٣ أى مطيقين فدل على أنهم صاروا مقرنين مطيقين لما سخرها لهم فهو معنى قوله {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ }يس ٧١ [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:١٦- ١٧ و مجموع الفتاوى ج: ٣٤ ص: ١٦

[2] اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٢٢

[3] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٦

يس ٧٧-٨٣

{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{٨٠} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{٨١} إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{٨٢} فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٨٣}

لا يكفي في العلم بإمكان الشيء عدم العلم بامتناعه

العلم بإمكان الشيء في الخارج فهذا يعلم بأن يعلم وجوده أو وجود نظيره أو وجود ما هو أقرب إلى الامتناع منه فإذا كان حمل البعير للقنطار ممكنا كان حمله لتسعين رطلا اولى بالإمكان وبهذه الطريقة يبين الله في القرآن إمكان ما يريد بيان إمكانه كإحياء الموتى والمعاد فإنه يبين ذلك تارة ببيان وقوعه كما أخبر أن قوم موسى قالوا { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ {٥٥} ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٥٦} البقرة٥٥ -٥٦ وكما أخبر عن المقتول الذي ضربوه بالبقرة فأحياه الله واستدل سبحانه بما هو أعظم من ذلك وهو النشأة الأولى وخلق السموات والأرض كقوله{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس٨١ والمقصود أن قول القائل هذا ممكن لا يحتاج إلى دليل لا يكفي في العلم بإمكانه عدم العلم بامتناعه والله سبحانه على كل شيء قدير والممتنع ليس بشيء باتفاق العقلاء وكل ما خلقه الله فلا بد أن يخلق لوازمه ويمتنع أضداده وإلا فيمتنع وجود الملزوم دون اللازم ويمتنع اجتماع الضدين وليس للعباد اطلاع على لوازم كل مخلوق ولا أضداده المنافية لوجوده فالجزم بإمكان وجوده بدون العلم بلوازمه وإمكانها وأضدادها وانتفائها جهل والله سبحانه قادر على تغيير ما شاءه من العالم وهو يشق السموات ويسير الجبال ويبسها بسا فيجعلها هباء منبثا إلى أمثال ذلك مما أخبر الله به كما يخلق سائر ما يخلقه بما ييسره من الأسباب وهذا مبسوط في موضع آخر[1]

طريقة القرآن في بيان امكان المعاد

قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{٨٠} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{٨١}يس ٧٧-٨١

---

[1] الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٠٧-٤٠٨

وليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده فى الخارج وهذا الذى يسمى الامكان الذهني فان الامكان على وجهين ذهني وهو ان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بإمكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذلك الشيء قد يكون ممتنعا في الخارج و خارجي وهو ان يعلم امكان الشيء فى الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده فى الخارج او وجود نظيره او وجوده ما هو ابعد عن الوجود منه فاذا كان الابعد عن قبول الوجود موجودا ممكن الوجود فالأقرب الى الوجود منه أولى وهذه طريقة القرآن فى بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه الطريقة فتارة يخبر عمن اماتهم ثم احياهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً }البقرة٥٥ قال { فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ {٥٥} ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٥٦}البقرة٥٥ -٥٦ وعن{ الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ }البقرة٢٤٣ وعن {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ }البقرة٢٥٩ وعن ابراهيم اذ قال { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى}البقرة٢٦٠ القصة وكما أخبر عن المسيح أنه كان يحيى الموتى باذن الله وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بهد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الاولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما فى قوله {إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ }الحج٥ الآية وقوله {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ }يس٧٩ { قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ }الإسراء٥١ {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }الروم٢٧

وتارة يستدل على امكان المعاد بخلق السموات والارض فان خلقها اعظم من اعادة الانسان كما في قوله {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً {٩٨} أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ{٩٩} الاسراء٩٨-٩٩ وكما في قوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس٨١ وقوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الأحقاف٣٣

وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات كما فى قوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً }الأعراف٥٧ الى قوله { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى }الأعراف٥٧ فقد تبين ان ما عند أئمة النظار اهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الالهية فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو ابلغ واكمل منها على احس وجه مع تنزهه عن الاغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فان خطأهم فيها كثيرا جدا ولعل ضلالهم اكثر من هداهم وجهلهم أكثر من علمهم ولهذا قال ابو عبد الله الرازي فى آخر عمره في كتابه اقسام الذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه٥ {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ }فاطر١٠ واقرأ في النفى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى١١ {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً }طه١١٠ ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٢٤ و الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣٢٠

بين للناس مبدأ خلقهم ليستدل به على المبدأ والمعاد

و قد قال تعالى فى سورة القيامة { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى{٣٧} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى{٣٨} فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{٣٩} أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى{٤٠} القيامة ٣٧-٤٠ فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التى تكون من التراب و لهذا قال في موضع آخر {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ}الحج٥ ففي القيامة إستدل بخلقه من نطفة فإنه معلوم لجميع الخلق و في الحج ذكر خلقه من تراب فإنه قد علم بالأدلة القطعية و ذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة و أما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى إبتداء فذكر أنه خلق الإنسان من علق و هو من العلقة الدم يصير مضغة و هو قطعة لحم كاللحم الذي يمضغ بالفم ثم تخلق فتصور كما قال تعالى { ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ }الحج٥ فإن الرحم قد يقذفها غير مخلقة فبين للناس مبدأ خلقهم و يرون ذلك بأعينهم و هذا الدليل و هو خلق الإنسان من علق يشترك فيه جميع الناس فإن الناس هم المستدلون و هم أنفسهم الدليل و البرهان و الآية فالإنسان هو الدليل و هو المستدل كما قال تعالى {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ }الذاريات٢١ و قال {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ }فصلت٥٣ و هذا كما قال فى آية أخرى {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ }الطور٣٥ وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه و يذكره كلما تذكر فى نفسه و فيمن يراه من بني جنسه فيستدل به على المبدأ و المعاد كما قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩}يس ٧٧-٧٩ [1]

وجود الشي دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه

وذلك ان أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب إعتقادها قولا أو قولا وعملا كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد أو دلائل هذه المسائل أما القسم الأول فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعذر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب والحمد لله الذ بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين { مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }يوسف١١١ وإنما يظن عدم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص:٢٦١- ٢٦٣

اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل الكتاب الذين قالوا {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١٠ وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة وأما القسم الثاني وهو دلائل هذه المسائل الأصولية فإنه وإن كان يظن طوائف من المتكلمين والمتفلسفة أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر ويجعلون ما يبنى عليه صدق المخبر معقولات محضة فقد غلطوا في ذلك غلطا عظيما بل ضلوا ضلالا مبينا في ظنهم أن دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد بل الأمر ما عليه سلف الأمة وأئمتها أهل العلم والإيمان من أن الله سبحانه وتعالى بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لايقدر أحد من هؤلاء وقدره ونهاية مايذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي قال فيها {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ}الروم٥٨ فإن الأمثال المضروبة وهي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمى الله آيتي موسى برهانين ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي في الأصل و الفرع ولا بقياس شمولي تستوي أفراده فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولايجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلا أو شمولا كما قال تعالى { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ }النحل٦٠ مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث لا نقص فيه بوجه من الوجوه وهو ما كان كمالا للموجود غير مستلزم للعدم فالواجب القديم أولى به وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق المربوب المعلول المدبر فإنما استفاده من خالقه وربه ومدبره فهو أحق به منه وأن كل نقص وعيب في نفسه وهو ماتضمن سلب هذا الكمال إذا وجب نفيه عن شيء ما من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود وأما الأمور العدمية فالممكن المحدث بها أحق ونحو ذلك ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين في مسائل التوحيد والصفات والمعاد ونحو ذلك ومثال ذلك أنه سبحانه لما أخبر بالمعاد والعلم به تابع للعلم بإمكانه فإن الممتنع لا يجوز أن يكون بين سبحانه إمكانه أتم بيان ولم يسلك في ذلك ما يسلكه طوائف من أهل الكلام حيث يثبتون الإمكان الخارجي بمجرد الإمكان الذهني فيقولون هذا ممكن لأنه لو قدر وجوده لم يلزم من تقدير وجوده محال فإن الشأن في هذه المقدمة فمن أين يعلم أنه لا يلزم من تقدير وجوده محال فإن هذه قضية كلية سالبة فلا بد من العلم بعموم هذا النفى وما يحتج به بعضهم على أن هذا ممكن بأنا لا نعلم امتناعه كما نعلم امتناع الأمور الظاهر امتناعها مثل كون الجسم متحركا ساكنا فهذا كاحتجاج بعضهم على أنها ليست بديهية بأن غيرها من البديهيات أجلى منها وهذه حجة ضعيفة لأن البديهي هو ما إذا تصور طرفاه جزم العقل به والمتصوران قد يكونان خفيين فالقضايا تتفاوت في الجلاء والخفاء لتفاوت تصورها كما تتفاوت لتفاوت الأذهان وذلك لا يقدح في كونها ضرورية ولا يوجب أن ما لم يظهر امتناعه يكون ممكنا بل قول هؤلاء أضعف لأن الشيء قد يكون ممتنعا لأمور خفية لازمة له فما لم يعلم انتفاء تلك اللوازم أو عدم لزومها لا يمكن الجزم بإمكانه والمحال هنا أعم من المحال لذاته أو لغيره والإمكان الذهنى

حقيقته عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع لا يستلزم العلم بالإمكان الخارجى بل يبقى الشيء في الذهن غير معلوم الامتناع ولا معلوم الإمكان الخارجى وهذا هو الإمكان الذهني فإن الله سبحانه وتعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعا ولو لغيره وإن لم يعلم الذهن إمتناعه بخلاف الإمكان الخارجي فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعا والإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكنا فلا بد من بيان قدرة الرب عليه وإلا مجرد العلم بإمكانه لا يكفي فى إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً }الإسراء٩٩ وقوله {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس٨١ وقوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الأحقاف٣٣ وقوله {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ }غافر٥٧ فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق بني آدم والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك وكذلك استدلاله على ذلك بالنشأة الأولى في مثل قوله {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }الروم٢٧ ولهذا قال بعد ذلك { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }الروم٢٧ وقال {إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ }الحج٥ الآية وكذلك ما ذكره في قوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ {٧٩} يس ٧٨-٧٩ الآيات فإن قوله تعالى { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} يس٧٨ قياس حذفت إحدى مقدمتيه لظهورها والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨}يس٧٨ وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم فإن كونها رميما يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ولنحو ذلك من الشبهات والتقدير هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها ولكن هذه السالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء وبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكن ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال { يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } يس ٧٩ وقد أنشأها من التراب ثم قال { وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} يس٧٩ ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء واستحال ثم قال { الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً } يس ٨٠ فبين أنه أخرج النار الحارة اليابسة من البارد الرطب وذلك أبلغ فى المنافاة لأن اجتماع الحرارة والرطوبة أيسر من اجتماع الحرارة واليبوسة إذ الرطوبة تقبل من الانفعال ما لا تقبله اليبوسة ولهذا كان تسخين الهواء والماء أيسر من تسخين التراب وإن كانت النار نفسها حارة يابسة فإنها جسم بسيط واليبس ضد الرطوبة والرطوبة يعنى بها البلة كرطوبة الماء ويعنى بها سرعة الإنفعال فيدخل في ذلك الهواء فكذلك يعنى باليبس عدم البلة فتكون النار يابسة ويراد باليبس بطء الشكل والانفعال فيكون التراب يابسا دون النار فالتراب فيه اليبس بالمعنيين بخلاف النار لكن الحيوان الذي فيه حرارة ورطوبة يكون من العناصر الثلاثة التراب والماء والهواء وأما الجزء النارى فللناس فيه قولان قيل فيه حرارة نارية وإن لم يكن فيه جزء من النار وقيل بل فيه جزء من النار وعلى كل تقدير فتكون الحيوان من العناصر أولى بالإمكان من تكون النار من الشجر الأخضر فالقادر على أن يخلق من الشجر الأخضر نارا أولى بالقدرة أن يخلق من التراب حيوانا فإن هذا معتاد وإن كان ذلك بما يضم

إليه من الأجزاء الهوائية والمائية والمقصود الجمع فى المولدات ثم قال { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم } يس ٨١ وهذه مقدمة معلومة بالبديهة ولهذا جاء باستفهام التقرير الدالّ على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب كما قال سبحانه {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً }الفرقان٣٣ ثم بين قدرته العامة بقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس ٨٢ وفي هذا الموضع وغيره من القرآن من الأسرار وبيان الأدلة القطعية على المطالب الدينية ما ليس هذا موضعه [1]

إعادة الخلق أولى بالإمكان من ابتدائه

فما لا يكون موجودا معينا لا يعقل لا معينا ولا مطلقا ولكن يقدر تقديرا في الذهن كما تقدر الممتنعات يبين ذلك أن العلم بكون الشيء ممكنا في الخارج يكون العلم بوجوده أو بوجود ما ذلك الشيء أولى بالوجود منه كما يذكره الله في كتابه في تقرير إمكان المعاد كقوله {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }غافر٥٧ وقوله {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }الروم٢٧ وقوله { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى{٣٧} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى{٣٨} فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{٣٩} أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى{٤٠} القيامة ٣٧ ـ ٤٠ وقوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الأحقاف٣٣ وقوله {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ }يس٧٨ إلى قوله{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس٨١ وأمثال ذلك مما يدل على أن إعادة الخلق أولى بالإمكان من ابتدائه وخلق الصغير أولى بالإمكان من خلق العظيم فأما مالا يعلم أنه ممكن إذا عرض على العقل ولم يعلم امتناعه فإمكانه ذهني بمعنى عدم العلم بالامتناع ليس إمكانه خارجيا بمعنى العلم بالإمكان في الخارج [2]

{الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ}

قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{٨٠} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{٨١}يس ٧٧-٨١

---

[1] درء التعارض ج: ١ ص: ٢٩-٣٥ والفتاوى الكبرى ج: ١ ص:٤٤٦- ٤٤٧ و مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٩٩-٣٠٠

[2] منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ٣٧٠

قال غير و احد من المفسرين هما شجرتان يقال لأحداهما المرخ و الأخرى العفار فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين و هما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ و هو ذكر على العفار و هو أنثي فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى و تقول العرب فى كل شجر نار و إستمجد المرخ و العفار و قال بعض الناس فى كل شجرة نار إلا العناب { فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ } يس ٨٠ فذلك زنادهم وقد قال أهل اللغة الجوهري و غيره الزند العود الذي يقدح به النار و هو الأعلى و الزندة السفلى فيها ثقب و هي الأنثي فإذا إجتمعا قيل زندان و قال أهل الخبرة بهذا أنهم يسحقون الثقب الذي فى الأنثي بالأعلى كما يفعل ذكر الحيوان فى أنثاه فبذلك السحق و الحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار فتتولد النار من مادة الذكر و الأنثي كما يتولد الولد من مادة الرجل و المرأة و سحق الأنثى بالذكر و قدحها به يقتضي حرارة كل منهما و يتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما أن إيلاج ذكر الحيوان فى أنثاه بقدح و حك فرجها بفرجه فتقوى حرارة كل منهما و يتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى و يتولد منهما الولد و يقال علقت النار في المحل الذي يقدح عليه الذي هو كالرحم للولد و هو الحراق و الصوفان و نحو ذلك مما يكون أسرع قبولا للنار من غيره كما علقت المرأة من الرجل و قد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة و قد لا تنقدح نار كما لا ينزل مني و النار ليست من جنس الزنادين بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء و الطين[1]

أن النشأتين نوعان تحت جنس يتماثلان من وجه ويتنوعان من وجه آخر

قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{٨٠} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{٨١}يس ٧٧-٨١

والقول الذي عليه السلف و جمهور العقلاء من أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة و الأطباء و هذا القول و هو القول فى خلق الله للأجسام التى يشاهد حدوثها أنه يقبلها و يحيلها من جسم إلى جسم هو الذي عليه السلف و الفقهاء قاطبة و الجمهور و لهذا يقول الفقهاء فى النجاسة هل تطهر بالإستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا و الخنزير و غيره ملحا و نحو ذلك و المنى الذي فى الرحم يقلبه الله علقة ثم مضغة و كذلك الثمر يخلق بقلب المادة التى يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء و الماء الذي نزل عليها غير ذلك من المواد التى يقلبها ثمرة بمشيئته و قدرته و كذلك الحبة يفلقها و تنقلب المواد التى يخلقها منها سنبلة و شجرة و غير ذلك و هكذا خلقه لما يخلقه سبحانه و تعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظما و لحما و غير ذلك من أجزاء البدن و كذلك المضغة يقلبها عظاما و غير عظام قال الله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ{١٢} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{١٣} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٤٢-٢٤٣

الْخَالِقِينَ{١٤} ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ{١٥} ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ{١٦} المؤمنون١٢-١٦ و كذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال تعالى {الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً }يس٨٠ فنفس تلك الأجزاء التى خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان فى الشجر الأخضر نار أصلا كما لم يكن فى الشجرة ثمرة أصلا و لا كان في بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذ الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا و بما ضمه إلى هذا من مواد آخر و كذلك الإعادة يعيده بعد أن يبلي كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبى صلىالله عليه و سلم أنه قال كل إبن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق إبن آدم و منه يركب وهو إذا أعاد الإنسان فى النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فإن هذه كائنة فاسدة و تلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة و ليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال أهل الجنة لا يبولون و لا يتغوطون و لا و لا يبصقون و لا يتمخطون و إنما هو رشح كرشح المسك و في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ }الأنبياء١٠٤ فهم يعودون غلفا لا مختونين وقال الحسن البصري و مجاهد كما بدأكم فخلقكم فى الدنيا و لم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء و قال قتادة بدأهم من التراب و إلى التراب يعودون كما قال تعالى {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }طه٥٥ و قال {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }الأعراف٢٥ وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس فى النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها فى غير موضع

وهو إذا أعاد الإنسان فى النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فإن هذه كائنة فاسدة و تلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة و ليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال أهل الجنة لا يبولون و لا يتغوطون و لا و لا يبصقون و لا يتمخطون و إنما هو رشح كرشح المسك و في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ }الأنبياء١٠٤ فهم يعودون غلفا لا مختونين وقال الحسن البصري و مجاهد كما بدأكم فخلقكم فى الدنيا و لم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء و قال قتادة بدأهم من التراب و إلى التراب يعودون كما قال تعالى {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }طه٥٥ و قال {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }الأعراف٢٥ وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس فى النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها فى غير موضع كقوله و {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }الأعراف٥٧ و قال {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ }ق٧ إلى قوله { وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ }ق١١ و قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ{٥} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٦}الحج٥ -٦ و قال تعالى {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ }فاطر٩ وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق و أنه يحيى العظام و هي رميم و أنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ }الروم٢٧ و يخبر أن الثانى مثل الأول كقوله تعالى { وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا

لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً{٩٨} أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ ً{٩٩} الاسراء٩٨-٩٩ و قال تعالى { وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً{٤٩} قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً{٥٠} أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً{٥١} يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً{٥٢} الاسراء٤٩-٥٢ و قال تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس٨١ و قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الأحقاف٣٣ و قال { أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ{٥٨} أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ{٥٩} نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ{٦٠} عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ{٦١} وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ{٦٢} الواقعة٥٨-٦٢ و المراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم كما أخبر بذلك في قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى }الأحقاف٣٣ فإن القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق فى هذه الدار ناسا أمثالهم فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين و هذه هي النشأة الأولى و قد علموها و بها إحتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ }الواقعة٦٢ و قال {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ {٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} يس٧٨-٧٩ و قال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ }الحج٥ و لهذا قال {عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ }الواقعة٦١ قال الحسن بن الفضل البجلي الذي عندي في هذه الآية { وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ {٦١} وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى{٦٢} الواقعة٦١ -٦٢ أي أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت و ذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت فى بطون الأمهات و ليست الأخرى كذلك و معلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح و تلك النطفة من منى الرجل و المرأة و هو يغذيه بدم الطمث الذي يربي به الجنين فى ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة و ظلمة الرحم و ظلمة البطن و النشأة الثانية لا يكونون فى بطن إمرأة و لا يغذون بدم و لا يكون أحدهم نطفة رجل و إمرأة ثم يصير علقة بل ينشئون نشأة أخرى و تكون المادة من التراب كما قال {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }طه٥٥ و قال تعالى { فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }الأعراف٢٥ {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً{١٧} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً{١٨}نوح١٧-١٨ و في الحديث أن الأرض تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات كما قال تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ }ق١١ { كَذَلِكَ النُّشُورُ }فاطر٩ { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }الأعراف٥٧ فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان و يتماثلان و يتشابهان من و جه ويفترقان ويتنوعان من و جه آخر و لهذا جعل المعاد هو المبدأ و جعل مثله أيضا فباعتبار إتفاق المبدأ و المعاد فهو هو و بإعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله و هكذا كل ما أعيد فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ و المعاد سواء في ذلك إعادة الأجسام و الأعراض كإعادة الصلاة و غيرها فإن النبى صلى الله عليه و سلم مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة و يقال للرجل أعد كلامك و فلان قد أعاد كلام فلان بعينه و يعيد الدرس فالكلام هو الكلام و إن كان صوت الثاني غير صوت الأول و حركته و لا يطلق القول عليه أنه مثله بل قد قال تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ} الإسراء٨٨ و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا وإن كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أي مثل هذا قال و يقال فعل هذا عودا على بدء إذا فعله مرة ثانية بعد أولى و منه البئر البدي و البئر العادي فالبدي التى إبتدئت و العادي التى أعيدت و ليست بنسبة إلى عاد كما قيل و يقال إستعدته الشيءفأعاده إذا سالته ان يفعله مرة ثانية و منه سميت العادة يقال عادة و إعتاده و تعوده أي صار عادة له و عود كلبه الصيد فتعوده و هو المعاودة و المعاودة الرجوع إلى الأمر الأول و يقال الشجاع معاود لأنه لا يمل المراس و عاودته الحمى و عاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة و تعاود القوم في الحرب و غيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه و العواد بالضم ما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه مرة أخرى و عواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة بإعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة فى المرة الثانية هي الأولى و إن تعدد الشخص و لهذا يقال هو مثله و يقال هذا هو هذا و كلاهما صحيح و أعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده و إنما يقال حاكاه و شابهه بخلاف ما إذا فعلا ثانيا مثل ما فعل أولا فإنه يقال أعاد فعله و كذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده و لا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده و يقال قريء على هذا و أعاد على هذا و هذا يقرأ أي يدرس و هذا يعيد و لو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد و كذلك من كسر خاتما أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان و يقال من هدم دارا أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فإن هذا لا يسمى معيدا و المعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه و يقال هذا مثل الأول من كل و جه و نحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من و جه و هو مثله من و جه و بهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان و نحو ذلك مما يمنع إعادته فى صريح العقل و إنما يعاد بالإتيان بمثله و إن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلا بوجه من الوجوه و الإعادة التى أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب و هي الإعادة التى فهمها المشركون و المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و هى التى يدل عليها لفظ الإعادة و المعاد هو الأول بعينه و إن كان بين لوازم الإعادة و لوازم البدأة فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثانى مباينا للأول من كل و جه كما زعم بعضهم و لا أن النشأة الثانية كالأولى من كل و جه كما ظن بعضهم و كما إنه سبحانه خلق الإنسان و لم يكن شيئا كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئا و على هذا فالإنسان الذي صار ترابا و نبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر و هلم جرا و الإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان و أكل ذلك الحيوان إنسانا آخر ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان و هذا الإنسان و صار كل منهما ترابا كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا و يعاد هذا من التراب و إنما يبقى عجب الذنب منه خلق و منه يركب و أما سائره فعدم فيعاد من المادة التى إستحال إليها فإذا إستحال فى القبر الواحد ألف ميت و صاروا كلهم ترابا فإنهم يعادون و يقومون من ذلك القبر و ينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدما محضا كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضا و إذا صار ألف إنسان ترابا فى قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التى خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة و جعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام و الشراب كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات و حيوان و كذلك لو أكل إنسانا أو أكل حيوانا قد أكل إنسانا فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الإستحالة بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة و من غير أن يغذوها بدم الطمث و من غير أن يغذوها بلبن الأم و بسائر ما يأكله من الطعام و الشراب فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التى إستحالت إلي أبدانهم فقد غلط وحينئذ فإذا أكل إنسان إنسانا فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية

و هو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية و معلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاما و شرابا ثم يصير كلوسا كالثردة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى فى البدن كله و يأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظما و اللحم لحما و العرق عرقا و هذا فى الرزق كإستحالتهم فى مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة و كما أنه سبحانه لا يحتاج فى الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزا و فاكهة و لحما ثم يجعلها كلوسا و كيموسا ثم دما ثم عظما و لحما و عروقا بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال {وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } الواقعة٦١ و لا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الإستحالات التى كانت فى النشأة الأولى و بهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائما فى التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من إنقلاب النطفة علقة و العلقة مضغة و حقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى و أما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى و تماثلها و إذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى إنقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بإنقلابه بسبب التحلل[١]

أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل ولا بقياس شمولي

قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{٨٠} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{٨١}يس ٧٧-٨١

فلفظ المثل يراد به النظير الذى يقاس عليه ويعتبر به ويراد به مجموع القياس قال سبحانه {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ }يس٧٨ أى لا أحد يحييها وهى رميم فمثل الخالق بالمخلوق فى هذا النفى فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على احيائها سواء نظمه فى قياس تمثيل او قياس شمول كما قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وبين أن معنى القياسين قياس الشمول وقياس التمثيل واحدا والمثل المضروب المذكور فى القرآن فاذا قلت النبيذ مسكر وكل مسكر حرام وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله صلى الله عليه وسلم كل مسكر حرام فهو كقوله قياسا على الخمر لأن الخمر انما حرمت لأجل الاسكار وهو موجود فى النبيذ[٢]

الاستدلال على الخالق بخلق الانسان

سبحانه بين القدرة على الابتداء كقوله {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم }يس٧٨-٧٩ وغير ذلك

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٢٤٨-٢٥٩

[٢] مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ١٧

فالاستدلال على الخالق بخلق الانسان في غاية الحسن والاستقامة وهي طريقة عقلية صحيحة وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس اليها وبينها وأرشد اليها وهي عقلية فان نفس كون الانسان حادثا بعد أن لم يكن ومولودا ومخلوقا من نطفة ثم من علقة هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعي لان الشارع استدل به وأمر أن يستدل به وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته [1]

خاصية الخلق انما هي بقلب جنس الى جنس

وخاصية الخلق انما هي بقلب جنس الى جنس وهذا لا يقدر عليه إلا الله ولا ريب أن النخلة ما هي من جنس النواة ولا السنبلة من جنس الحبة ولا الانسان من جنس المني ولا المني من جني الانسان وهو يخرج هذا من هذا وهذا من هذا فيخرج كل جنس من جنس آخر بعيد عن مماثلته و{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }لقمان١١ وهو سبحانه إذا جعل الابيض أسود أعدم ذلك البياض وجعل موضعه السواد لا أن الأجسام تعدم تلك المادة فتحيلها وتلاشيها وتجعل منها هذا المخلوق الجديد ويخلق الضد من ضده كما جعل من الشجر الاخضر نارا فاذا حك الاخضر بالأخضر سخن ما يسخنه بالحركة حتى ينقلب نفس الاخضر فيصير نارا { الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ}يس٨٠ [2]

إذا جادل القرآن يسأل ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية

إذا جادل القرآن يسأل ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية التى لا يمكن أحد ان يجحدهما لتقرير المخاطب بالحق ولاعترافه بانكار الباطل كما فى مثل قوله {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ }الطور٣٥ وقوله {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ }ق١٥ {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس٨١ وقوله {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى {٣٦} أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى{٣٧} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى{٣٨} فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{٣٩} أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى{٤٠} القيامة٣٦ ـ ٤٠ إلى أمثال ذلك مما يخاطبهم باستفهام التقرير المتضمن اقرارهم واعترافهم بالمقدمات البرهانية التى تدل على المطلوب فهو من أحسن جدل بالبرهان فان الجدل انما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات وان لم تكن بينة معروفة فاذا كانت بينة معروفة كانت برهانية والقرآن لا يحتج فى مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما هي الطريقة الجدلية عند اهل المنطق وغيرهم بل بالقضايا والمقدمات التى تسلمها الناس وهى برهانية وان كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل

---

[1] النبوات ج: ١ ص: ٥٢

[2] النبوات ج: ١ ص: ٦٤

على صحتها كقوله {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ }الأنعام٩١ فان الخطاب لما كان مع من يقر بنبوة موسى من أهل الكتاب ومع من ينكرها من المشركين ذكر ذلك بقوله { قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}الأنعام٩١ وقد بين البراهين الدالة على صدق موسى فى غير موضع وعلى قراءة من قرأ يبدونها كابن كثير وابي عمرو جعلوا الخطاب مع المشركين وجعلوا قوله { وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ }الأنعام٩١ احتجاجا على المشركين بما جاء به محمد فالحجة على اولئك نبوة موسى وعلى هؤلاء نبوة محمد ولكل منهما من البراهين ما قد بعضه فى غير موضع وعلى قراءة الأكثرين بالتاء هو خطاب لأهل الكتاب وقوله {عُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ }الأنعام٩١ بيان لما جاءت به الأنبياء مما انكروه فعلمهم الأنبياء ما لم يقبلوه ولم يعلموه فاستدل بما عرفوه من أخبار الأنبياء وما لم يعرفوه[1]

لفظ الشىء إسم لما يوجد فى الأعيان ولما يتصور فى الأذهان

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شىء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا والتحقيق أن الشىء إسم لما يوجد فى الأعيان و لما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء فى التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئا فى الخارج و منه قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ ولفظ الشىء فى الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شئ ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزاد عليه شئ وأنه يدخل فى ذلك أفعال نفسه وقد نطقت النصوص بهذا وهذا كقوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم}يس٨١ {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى }القيامة٤٠ {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ }القيامة٤ و نظائره كثيرة[2]

الله سبحانه يقدر على الافعال كالاحياء والبعث

والمنازعون النفاة كذلك منهم من ينفى الصفات مطلقا فهذا يكون الكلام معه فى الصفات مطلقا لا يختص بالصفات الاختيارية ومنهم من يثبت الصفات ويقول لا يقوم بذاته شيء بمشيئته وقدرته فيقول انه لا يتكلم بمشيئته واختياره ويقول لا يرضى ويسخط ويحب ويبغض ويختار بمشيئته وقدرته ويقول انه لا يفعل فعلا هو الخلق يخلق به المخلوق ولا يقدر عنده على فعل يقوم بذاته بل مقدوره لا يكون الا منفصلا منه لهذا موضع تنازع فيه النفاة فقيل لا يكون

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص:١٦٤- ١٦٦

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص:٩- ١٠

مقدوره الا بائنا عنه كما يقوله الجهمية والكلابية والمعتزلة وقيل لا يكون مقدروه الا ما يقوم بذاته كما يقوله السالمية والكرامية والصحيح ان كليهما مقدور له اما الفعل فمثل قوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس٨١ الى امثال ذلك مما يبين انه يقدر على الافعال كالاحياء والبعث ونحو ذلك واما القدرة على الاعيان ففى الصحيح عن ابى مسعود قال كنت اضرب غلاما لى فرآنى النبى فقال اعلم ابا مسعود لله اقدر عليك منك على هذا فقوله لله اقدر عليك منك على هذا دليل على ان القدرة تتعلق بالاعيان المنفصلة قدرة الرب و قدرة العبد ومن الناس من يقول كلاهما يتعلق بالفعل كالكرامية ومنهم من يقول قدرة الرب تتعلق بالمنفصل واما قدرة العبد فلا تتعلق الا بفعل فى محلها كالاشعرية و النصوص تدل على ان كلا القدرتين تتعلق بالمتصل والمنفصل فان الله تعالى اخبر ان العبد يقدر على افعاله كقوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }التغابن١٦ وقوله {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ }النساء٢٥ فدل على ان منا من يستطع ذلك ومنا من لم يستطع وقال النبى يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اخرجاه فى الصحيحين وقوله ان استطعت ان تعمل بالرضا مع اليقين فافعل وقوله فى الحديث الذى فى الصحيح اذا أمرتكم بامر فاتوا منه ما استطعتم وقد اخبر أنه قادر على عبده وهؤلاء الذين يقولون لا تقوم به[1]

قال تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس٨١ فهذا كله معاد الأبدان وقد صرح سبحانه بأنه خلق جديد في موضعين من كتابه وهذا الخلق الجديد هو المثل[2]

الفرق بين الدينى وبين الكونى

والله سبحانه قد بين في كتابه فى كل واحدة من الكلمات والامر والارادة والاذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وامره الشرعى وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية مثال ذلك انه قال فى الامر الدينى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى }النحل٩٠ وقال تعالى{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً }النساء٥٨ ونحو ذلك وقال فى الامر الكونى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وقال تعالى {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ }القمر٥٠ وقال تعالى { أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ }يونس٢٤ وكذلك قوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٣٧-٢٣٨

[2] دقائق التفسير ج: ٣ ص: ٢٦

مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً }الإسراء١٦ على احدى الاقوال فى هذه الاية[1]

أن الإرادة فى كتاب الله نوعان إرادة دينية شرعية وإرادة كونية قدرية فالارادة الدينية كقوله تعالى { يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }البقرة١٨٥ {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }النساء٢٦ { مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ }المائدة٦ وأما الإرادة الكونية القدرية فمثل قوله تعالى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء }الأنعام١٢٥

وقال { وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }البقرة٢٥٣ وقال نوح عليه السلام {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ }هود٣٤ وقال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ ومثل قول المسلمين ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن فجميع الكائنات داخلة فى هذه الإرادة والإشاءة لا يخرج عنها خير ولا شر ولا عرف ولا نكر وهذه الإرادة والإشاءة تتناول ما لا يتناوله الأمر الشرعى وأما الإرادة الدينية فهى مطابقة للأمر الشرعى لا يختلفان وهذا التقسيم الوارد فى إسم الإرادة يرد مثله فى إسم الأمر والكلما والحكم والقضاء والكتاب والبعث والإرسال ونحوه فإن هذا كله ينقسم إلى كونى قدرى وإلى دينى شرعى
والكلمات الكونية هى التى لا يخرج عنها بر ولا فاجر وهى التى إستعان بها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر و قال الله تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وقال تعالى {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً }الأنعام١١٥ والكون كله يدخل تحت هذه الكلمات وأما الدينية فهى الكتب المنزلة وشرع الله الذى بعث به رسوله وهى أمره ونهيه وخبره وحظ العبد منها العلم بها والعمل والأمر بما أمر الله به التى قال فيها النبى من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وقال تعالى { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ }التحريم١٢ [2]

بمعرفة الفرق بين الكوني والديني تندفع شبهات عظيمة

وقد ذكر الله فى كتابه الفرق بين الارادة و الأمر و القضاء و الاذن و التحريم و البعث و الارسال و الكلام و الجعل بين الكونى الذى خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت اصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الدينى الذى امر به وشرعه واثاب عليه واكرمهم وجعلهم من اوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التى يفرق بها بين اولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من اوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص:٢٤- ٢٥ و أمراض القلوب ج: ١ ص: ٤٦ والتحفة العراقية ج: ١ ص: ٤٦ و الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٥١

[2] مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٣٢-١٣٣ و مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣٢٢

ومات على ذلك كان من اعدائه ف الارادة الكونية هى مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة فى مشيئته وارادته الكونية والارادة الدينية هى المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح[1]

و هذا التقسيم تقسيم شريف و هو أيضا و أرد فى كتاب الله فى الاذن و الأمر و الكلمات و التحريم و الحكم و القضاء كما قد بيناه فى غير هذا الموضع و بمعرفته تندفع شبهات عظيمة[2]

الأمر الشرعى هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا

قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الدينى وخلقه الكونى فإن الله سبحانه خالق كل شىء ورب كل شىء ومليكه سواء فى ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء الا بمشيئته وقد فرق الله فى كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك فى أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال فى الأمر الدينى الشرعى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى }النحل٩٠ وقال فى الأمر الكونى القدرى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة فى مسألة الأمر الشرعى هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزما للإرادة الدينية الشرعية[3]

فيقال الأمر الكونى يكون موجودا قبل وجود المكون لا يسمعه العبد وليس امتثاله مقدورا له بل الرب هو الذى يخلق ما كونه بمشيئته وقدرته والله تعالى ليس له شريك فى الخلق والتكوين والعبد وإن كان فاعلا بمشيئته وقدرته والله خالق كل ذلك فتكوين الله للعبد ليس هو أمرا لعبد موجود فى الخارج يمكنه الامتثال وكذلك ما خلقه من أحواله وأعماله خلقه بمشيئته وقدرته و {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ فكل ما كان من المكونات فهو داخل فى هذا الامر وأكل آدم من الشجرة وغير ذلك من الحوادث داخل تحت هذا كدخول آدم فنفس أكل آدم هو الداخل تحت هذا الأمر كما دخل آدم فقول القائل انه قال لآدم فى الباطن كل مثل قوله انه قال للكافر اكفر وللفاسق افسق والله لا يأمر بالفحشاء ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يوجد منه خطاب باطن ولا ظاهر للكفار والفساق والعصاة بفعل الكفر والفسوق والعصيان وان كان ذلك واقعا بمشيئته وقدرته وخلقه وأمره الكونى فالأمر الكونى ليس هو أمرا للعبد أن يفعل ذلك الأمر بل هو أمر تكوين لذلك الفعل فى العبد أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال فهو سبحانه الذى خلق الإنسان هلوعا{ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٦٧

[2] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٤٠

[3] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤١١-٤١٢

مَنُوعاً{٢١} المعارج ١٩-٢١ وهو الذى جعل المسلمين مسلمين كما قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }البقرة١٢٨ فهو سبحانه جعل العباد على الأحوال التى خلقهم عليها وأمره لهم بذلك أمر تكوين بمعنى أنه قال لهم كونوا كذلك فيكونون كذلك كما قال للجماد كن فيكون فأمر التكوين لا فرق فيه بين الجماد والحيوان وهو لا يفتقر الى علم المأمور ولا إرادته ولا قدرته لكن العبد قد يعلم ما جرى به القدر فى أحواله كما يعلم ما جرى به القدر فى أحوال غيره وليس فى ذلك علم منه بأن الله أمره فى الباطن بخلاف ما أمره فى الظاهر بل أمره بالطاعة باطنا وظاهرا ونهاه عن المعصية باطنا وظاهرا وقدر ما يكون فيه من طاعة ومعصية باطنا وظاهرا وخلق العبد وجميع أعماله باطنا وظاهرا وكون ذلك بقوله كن باطنا وظاهرا وليس فى القدر حجة لابن آدم ولا عذر بل القدر يؤمن به ولا يحتج به والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض فإن القدر ان كان حجة وعذرا لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه اذا ظلم فى نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه وهذا أمر ممتنع فى الطبيعة لا يمكن أحد أن يفعله فهو ممتنع طبعا محرم شرعا ولو كان القدر حجة وعذرا لم يكن ابليس ملوما ولا معاقبا ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار ولا كان جهاد الكفار جائزا ولا اقامة الحدود جائزا ولا قطع السارق ولا جلد الزانى ولا رجمه ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه ولما كان الإحتجاج بالقدر باطلا فى فطر الخلق وعقولهم لم تذهب اليه أمة من الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا فى دنياه ولا آخرته ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزما مع الآخر نوعا من الشرع فالشرع نور الله فى أرضه وعدله بين عباده لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك ثم المنزلة تارة تبدل وتغير كما غير أهل الكتاب شرائعهم وتارة لا تغير ولا تبدل وتارة يدخل النسخ فى بعضها وتارة لا يدخل وأما القدر فانه لا يحتج به أحد إلا عند اتباع هواه فاذا فعل فعلا محرما بمجرد هواه وذوقه ووجده من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند الى القدر كما قال المشركون {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ {١٤٨} الانعام ١٤٨ قال الله تعالى {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ{١٤٨} قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ{١٤٩} الانعام ١٤٨-١٤٩ فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين وانما يتبعون الظن[1]

ليس لأحد أن يحمل خطاب الله ورسوله على ما يخطر

قال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وهذا عند أكثر العلماء هو خطاب يكون لمن يعلمه الرب تعالى في نفسه وإن لم يوجد بعد ومن قال إنه عبارة عن شرعة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٢٢-٣٢٤

التكوين فقد خالف مفهوم الخطاب وحمل الآية على ذلك يستدعي استعمال الخطاب في مثل هذا المعنى وأن هذا من اللغة التي نزل بها القرآن وإلا فليس لأحد أن يحمل خطاب الله ورسوله على ما يخطر [1]

االصفات الاختيارية

والصفات الاختيارية هى الأمور التى يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثلا كلامه وسمعه وبصره وارادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه واحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التى نطق بها الكتاب العزيز والسنة والآيات التى تدل على الصفات الاختيارية كثيرة جدا وكذلك فى الارادة و المحبة كقوله تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وامثال ذلك فى القرآن العزيز فان جوازم الفعل المضارع ونواصبه تخلصه للاستقبال مثل إن و أن وكذلك اذا طرف للمستقبل من الزمان فقوله اذا اراد و ان شاء الله ونحو ذلك يقتضى حصول ارادة مستقبلة ومشيئة مستقبلة

١-ان الله سبحانه لم يزل مريدا بإرادات متعاقبة فنوع الإرادة قديم و أما إرادة الشيء المعين فإنما يريده فى وقته [2]

قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ و أن المنكرين لكونه يحب من الجهمية و من وافقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يعبد كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة و لا رحمة يقتضي أنه لا يحمد فهم إنما يصفونه بالقدرة و القهر و هذا إنما يقتضى الإجلال فقط لا يقتضى الإكرام و المحبة و الحمد و هو سبحانه الأكرم قال تعالى {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ {١٢} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ{١٣}البروج١٢ -١٣ ثم قال { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{١٤} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{١٥} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{١٦} البروج١٤-١٦ و قال شعيب {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } هود٩٠ وفى أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق و بأنه الأكرم والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقا مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقا لا يصفونه بالكرم ولا الرحمة ولا الحكمة و إن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها بل يطلقونها لأجل مجيئها فى القرآن ثم يلحدون فى أسمائه و يحرفون الكلم عن مواضعه فتارة يقولون الحكمة هي القدرة و تارة يقولون هي المشيئة و تارة

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٣٦٨

[2] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٢٥

يقولون هي العلم وأن الحكمة و إن تضمنت ذلك و استلزمته فهي أمر زائد على ذلك فليس كل من كان قادر أو مريدا كان حكيما و لا كل من كان له علم يكون حكيما حتى يكون عاملا بعلمه قال ابن قتيبة و غيره الحكمة هي العلم و العمل به و هي أيضا القول الصواب فتتناول القول السديد و العمل المستقيم الصالح و الرب تعالى أحكم الحاكمين و أحكم الحكماء و الأحكام الذي فى مخلوقاته دليل على علمه و هم مع سائر الطوائف يستدلون بالأحكام على العلم و إنما يدل إذا كان الفاعل حكيما يفعل لحكمة و هم يقولون إنه لا يفعل لحكمة و إنما يفعل بمشيئة تخص أحد المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص و هذا مناقض للحكمة بل هذا سفه وهو قد نزه نفسه عنه فى قوله { لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ{١٧} بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ{١٨}الأنبياء١٧-١٨ وقد أخبر أنه إنما خلق السموات و الأرض و ما بينهما بالحق و أنه لم يخلقها باطلا و أن ذلك ظن الذين كفروا و قال{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً }المؤمنون١١٥ و قال {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }القيامة٣٦ أي مهملا لا يؤمر و لا ينهى و هذا إستفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه و لا تنزهه عن فعل و إن كان من منكرات الأفعال و لا تنعته بلوازم كرمه و رحمته و حكمته و عدله فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك و لا يفعل ما يضاد ذلك بل تجوز كل مقدور أن يكون و أن لا يكون و إنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعى أو عادة مطردة مع تناقضهم فى الإستدلال بالخبر أخبار الرسل و عادات الرب كما بسط هذا في مواضع مثل الكلام على معجزات الأنبياء و على إرسال الرسل و الأمر و النهى و على المعاد و نحو ذلك مما يتعلق بأفعاله و أحكامه الصادرة عن مشيئته فإنها صادرة عن حكمته و عن رحمته و مشيئته مستلزمة لهذا و هذا لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها فهم فى الحقيقة لا يقرون بأنه الأكرم و الإرادة التى يثبتونها لم يدل عليها سمع و لا عقل فإنه لا تعرف إرادة ترجح مرادا على مراد بلا سبب يقتضي الترجيح و من قال من الجهمية و المعتزلة إن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح فهو مكابر و تمثيلهم ذلك بالجائع إذا أخذ أحد الرغيفين و الهارب إذا سلك أحد الطريقين حجة عليهم فإن ذلك لا يقع إلا مع رجحان أحدهما إما لكونه أيسر فى القدرة و إما لأنه الذي خطر بباله و تصوره أو ظن أنه أنفع فلابد من رجحان أحدهما بنوع ما إما من جهة القدرة و إما من جهة التصور و الشعور و حينئذ يرجح إرادته و الآخر لم يرده فكيف يقال أن إرادته رجحت أحدهما بلا مرجح أو أنه رجح إرادة هذا على إرادة ذاك بلا مرجح و هذا ممتنع يعرف إمتناعه من تصوره حق التصور و لكن لما تكلموا في مبدأ الخلق بكلام إبتدعوه خالفوا به الشرع و العقل إحتاجوا إلى هذه المكابرة كما قد بسط فى غير هذا الموضع و بذلك تسلط عليهم الفلاسفة من جهة أخرى فلا للإسلام نصروا و لا للفلاسفة كسروا و معلوم بصريح العقل أن القادر إذا لم يكن مريدا للفعل و لا فاعلا ثم صار مريدا فاعلا فلا بد من حدوث أمر إقتضي ذلك و الكلام هنا فى مقامين أحدهما فى جنس الفعل و القول هل صار فاعلا متكلما بمشيئته بعد أن لم يكن أو ما زال فاعلا متكلما بمشيئته و هذا مبسوط فى مسائل الكلام و الأفعال فى مسألة القرآن و حدوث العالم و الثاني إرادة الشيء المعين و فعله كقوله تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ و قوله { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا }الكهف٨٢ و قوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً }الإسراء١٦ و قوله { وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ }الرعد١١ و قوله {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ }يونس١٠٧ و قوله {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ }الزمر٣٨ وهو سبحانه إذا أراد شيئا من ذلك فللناس فيها أقوال قيل الإرادة قديمة أزلية واحدة و إنما يتجدد تعلقها بالمراد ونسبتها إلى الجميع واحدة و لكن من خواص الإرادة أنها تخصص بلا مخصص فهذا قول ابن كلاب و الأشعرى و من تابعهما و كثير من العقلاء يقول إن هذا فساده معلوم بالإضطرار حتى قال أبو البركات ليس فى العقلاء من قال بهذا و ما علم أنه قول طائفة كبيرة من أهل النظر و الكلام و بطلانه من جهات من جهة جعل إرادة هذا غير إرادة ذاك و من جهة أنه جعل الإرادة تخصص لذاتها و من جهة أنه لم يجعل عند وجود الحوادث شيئا حدث حتى تخصص أو لا تخصص بل تجددت نسبة عدمية ليست و جودا و هذا ليس بشيء فلم يتجدد شيء فصارت الحوادث تحدث و تتخصص بلا سبب حادث و لا مخصص و القول الثاني قول من يقول بإرادة واحدة قديمة مثل هؤلاء لكن يقول تحدث عند تجدد الأفعال إرادات فى ذاته بتلك المشيئة القديمة كما تقوله الكرامية و غيرهم و هؤلاء أقرب من حيث أثبتوا إرادات الأفعال و لكن يلزمهم ما لزم أولئك من حيث أثبتوا حوادث بلا سبب حادث و تخصيصات بلا مخصص و جعلوا تلك الإرادة واحدة تتعلق بجميع الإرادات الحادثة و جعلوها أيضا تخصص لذاتها و لم يجعلوا عند وجود الإردات الحادثة شيئا حدث حتى تخصص تلك الإرادات الحدوث و القول الثالث قول الجهمية و المعتزلة الذين ينفون قيام الإرادة به ثم إما أن يقولوا بنفي الإرادة أو يفسرونها بنفس الأمر و الفعل أو يقولوا بحدوث إرادة لا فى محل كقول البصريين و كل هذه الأقول قد علم أيضا فسادها و القول الرابع أنه لم يزل مريدا بإرادات متعاقبة فنوع الإرادة قديم و أما إرادة الشيء المعين فإنما يريده فى و قته و هو سبحانه يقدر الأشياء و يكتبها ثم بعد ذلك يخلقها فهو إذا قدرها علم ما سيفعله و أراد فعله في الوقت المستقبل لكن لم يرد فعله فى تلك الحال فإذا جاء و قته أراد فعله فالأول عزم و الثاني قصد وهل يجوز و صفه بالعزم فيه قولان أحدهما المنع كقول القاضي أبى بكر و القاضي أبى يعلى و الثاني الجواز و هو أصح فقد قرأ جماعة من السلف { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ }آل عمران١٥٩ بالضم و فى الحديث الصحيح من حديث أم سلمة ثم عزم الله لي و كذلك فى خطبة مسلم فعزم لي و سواء سمي عزما أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها فى وقتها و أراد أن يفعلها فى وقتها فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعين و نفس الفعل و لابد من علمه بما يفعله ثم الكلام في علمه بما يفعله هل هو العلم المتقدم بما سيفعله و علمه بأن قد فعله هل هو الأول فيه قولان معروفان و العقل و القرآن يدل على أنه قدر زائد كما قال لنعلم فى بضعة عشر موضعا و قال ابن عباس إلا لنرى و حينئذ فإرادة المعين تترجح لعلمه بما في المعين من المعنى المرجح لإرادته فالإرادة تتبع العلم و كون ذلك المعين متصفا بتلك الصفات المرجحة إنما هو فى العلم و التصور ليس فى الخارج شيء و من هنا غلط من قال المعدوم شيء حيث أثبتوا ذلك المراد فى الخارج و من لم يثبته شيئا في العلم أو كان ليس عنده إلا إرادة واحدة و علم واحد ليس للمعلومات و المرادات صورة علمية عند هؤلاء فهؤلاء نفوا كونه شيئا فى العلم و الإرادة و أولئك أثبتوا كونه شيئا فى الخارج وتلك الصورة العلمية الإرادية حدثت بعد أن لم تكن و هي حادثة بمشيئته و قدرته كما يحدث الحوادث المنفصلة بمشيئته و قدرته فيقدر ما يفعله ثم يفعله فتخصيصها بصفة دون صفة و قدر دون قدر هو للأمور المقتضية لذلك فى نفسه فلا يريد إلا ما تقتضي نفسه إرادته بمعنى يقتضي ذلك و لا يرجح مرادا على مراد إلا لذلك و لا يجوز أن يرجح شيئا لمجرد كونه قادر فإنه كان قادرا قبل إرادته و هو قادر على غيره فتخصيص هذا بالإرادة لا يكون بالقدرة المشتركة بينه و بين غيره و لايجوز أيضا أن تكون الإرادة تخصص مثلا على مثل بلا مخصص بل إنما يريد المريد حد الشيئين دون الآخر لمعنى فى المريد و المراد لابد أن يكون المريد إلى ذلك

أميل و أن يكون فى المراد ما أوجب رجحان ذلك الميل و القرآن و السنة تثبت القدر و تقدير الأمور قبل أن يخلقها و أن ذلك في كتاب و هذا أصل عظيم يثبت العلم و الإرادة لكل ما سيكون و يزيل إشكالات كثيرة ضل بسببها طوائف فى هذا المكان فى مسائل العلم و الإرادة فالإيمان بالقدر من أصول الإيمان كما ذكره النبى صلى الله عليه و سلم فى حديث جبريل قال الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و بالبعث بعد الموت و تؤمن بالقدر خيره و شره و قد تبرأ ابن عمر و غيره من الصحابة من المكذبين بالقدر و مع هذا فطائفة من أهل الكلام و غيرهم لا تثبت القدر إلا علما أزليا و إرادة أزلية فقط و إذا أثبتوا الكتابة قالوا إنها كتابة لبعض ذلك و أما من يقول إنه قدرها حينئذ كما فى صحيح مسلم عن عبدالله ابن عمرو عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و كان عرشه على الماء فقد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع[1]

٢-الله سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء

هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء كما أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه سبحانه استوى إلى السماء وهي دخان وأنه سبحانه يأتي في ظلل من الغمام والملائكة كما قال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر٢٢ وقال {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}الأنعام١٥٨ وقال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وقال تعالى {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ }التوبة١٠٥[2]

قالوا فالكلام القديم هو الحروف والأصوات ومنهم من قال الحروف دون الأصوات فهي قديمة أزلية بأعيانها لا نقول بوجود شيء بعد شيء وأنه ما زال يقول يا آدم يا نوح يا موسى من الأزل إلى الأبد ولا يزال يقول ذلك وقال هؤلاء باقتران الحروف بعضها ببعض في الأزل وأن الياء والسين موجودتان معا في الأزل والترتيب بينهما إنما هو ترتيب في ذاتهما أو في ظهورهما لا في وجودهما وهذا قول طائفة من أهل الكلام والحديث والفقه حكاه الأشعري في المقالات عن طائفة قالته وقد وافقهم عليه طائفة من الفقهاء من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وغيرهم فأنكر الجمهور هذا القول وقالوا هذا مخالف لصريح المعقول والمنقول فإن الله تعالى يقول {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢[3]

٣-كل ما سوى الله حادث كائن بعد أن لم يكن

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٩٧-٣٠٦
[2] الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٣٠٥
[3] الصفدية ج: ٢ ص: ٥٨

فالرب تعالى إذا لم يحدث شيئا إلا بقدرته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ فلا بد أن يريد الفعل قبل أن يفعله ولا بد أن يكون الفعل قبل المفعول وإن كانت الإرادة والفعل موجودين عند وجود المفعول كما يقول أهل السنة إن القدرة لا بد أن تكون مع الفعل[1]

و الذي يدل عليه المعقول الصريح ويقر به عامة العقلاء ودل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف والائمة وهو ان المؤثر التام يستلزم وقوع اثره عقب تأثره التام لا يقترن به ولا يتراخى كما اذا طلقت المرأة فطلقت واعتقت العبد فعتق وكسرت الاناء فانكسر وقطعت الحبل فانقطع فوقوع العتق والطلاق ليس مقارنا لنفس التطيق والاعتاق بحيث معه ولا هو ايضا عنه بل يكون عقبه متصلا به وقد يقال هو معه ومفارق له باعتبار انه يكون عقبه متصلا به كما يقال هو بعده متأخر عنه باعتبار انه انما يكون عقب التأثير التام ولهذا قال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ فهو سبحانه يكون ما يشاء تكوينه فاذا كونه كان عقب تكوينه متصلا به لا يكون مع تكوينه فى الزمان ولا يكون متراخيا عن تكوينه بينهما فصل فى الزمان بل يكون متصلا بتكوينه كاتصال اجراءذ الحركة والزمان بعضها ببعض وهذا مما يستدل به على ان كل ما سوى الله حادث كائن بعد أن لم يكن وان قيل مع ذلك بدوام ومتكلميته وهذه الامور مبسوطة فى غير هذا الموضع[2]

٤ـالخلق عقب الإرادة والمخلوق عقب التكوين والخلق

إذا أراد سبحانه أن يخلق كان الخلق عقب الإرادة والمخلوق عقب التكوين والخلق كما قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ والجهمية والمعتزلة لا يقولون بذلك في الفعل بل يقولون يفعل مع جواز أن لا يفعل إلى أن قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ذلك وبينوه للناس وعرفوا أن حدوث الحوادث اليومية المشهودة تدل على أن العالم مخلوق وأن له ربا خلقه ويحدث فيه الحوادث وقد ذكر ذلك الحسن البصري كما رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب المطر ورواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة وذكره أبو الفرج بن الجوزي في تفسيره قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني هارون حدثني عفان عن مبارك بن فضالة قال سمعت الحسن يقول كانوا يقولون يعني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الرفيق الذي لو جعل هذا الخلق خلقا دائما لا يتصرف لقال الشاك في الله لو كان لهذا الخلق رب لحادثه وإن الله قد حادثه بما ترون من الآيات إنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين وجعل فيها معاشا وسراجا وهاجا ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين وجعل فيها سكنا ونجوما وقمرا منيرا وإذا شاء بنى بناء جعل فيه من المطر والبرق والرعد والصواعق ما شاء وإذا شاء صرف ذلك وإذا شاء جاء ببرد يقرقف الناس وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس ليعلم الناس أن لهذا

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ٢٢٤

[2] مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٢

الخلق ربا يحادثه بما يرون من الآيات كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة فقد ذكر الحسن عن الصحابة الإستدلال بهذه الحوادث المشهودة على وجود الرب سبحانه المحدث الفاعل بمشيئته وقدرته وبطلان أن يكون موجبا يقارنه موجبه فإن ذلك يمتنع محادثته أي إحداث الحوادث فيه وقولهم لو كان هذا الخلق خلقا دائما لا يتصرف لقال الشاك في الله لو كان لهذا الخلق رب لحادثه يقتضي أن هذه الحوادث آيات الله وأنه رب هذا الخلق وأن هذا الخلق محدث لكون غيره يحادثه أي يحدث فيه الحوادث وما صرفه غيره وأحدث فيه الحوادث كان مقهورا مدبرا لم يكن واجبا بنفسه ممتنعا عن غيره وقوله لو كان له رب لحادثه قد يقال إنهم أنكروا هذا القول لقولهم لقال الشاك في الله وقد يقال بل هم مصدقون بهذه القضية الشرطية ولكن لو لم تكن الحوادث لكان الله يعرف دون هذه الحوادث فإن معرفته حاصلة بالفطرة والضرورة ونفس وجود الإنسان مستلزم لوجود الرب فكان الصانع يعلم من غير هذه الطريق فلهذا يعاب الشاك ويمكن أنهم لم يقصدوا عيبه على هذا التقدير بل على هذا التقدير كان الشك موجودا في الناس إذ لا دليل على وجوده فكانت هذه الآيات مزيلة للشك وموجبة لليقين والأول أشبه بمرادهم وأولى بالحق فإنهم قالوا لقال الشاك في الله فدل على أن هناك من ليس بشاك في الله ولم يقولوا لشك الناس في الله وبسط هذا القول في إثبات الصانع له موضع غير هذا والمقصود أنه سبحانه وتعالى يخلق بمشيئته واختياره وأنه يختار الأحسن وأن إرادته ترجح الراجح الأحسن وهذا حقيقة الإرادة ولا تعقل إرادة ترجح مثلا على مثل ولو قدر وجود مثل هذه الإرادة فتلك أكمل وأفضل والخلق متصفون بها ويمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق والمحدث الممكن أكمل من الواجب القديم فوجب أن يكون ما توصف به إرادته أكمل مما توصف به إرادة غيره فيجب أن يريد بها ما هو الأولى والأحسن والأفضل وهو سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته فالممتنع لا تتعلق به قدرة فلا يراد والممكن الذي يمكن أن يفعل ويكون مقدورا ترجح الإرادة الأفضل الأرجح منه وما يحكي عن الغزالي أنه قال ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم فإنه لو كان كذلك ولم يخلقه لكان بخلا يناقض الجود أو عجزا يناقض القدرة وقد أنكر عليه طائفة هذا الكلام وتفصيله أن الممكن يراد به القدور ولا ريب أن الله سبحانه يقدر على غير هذا العالم وعلى إبداع غيره إلى ما لا يتناهى كثرة ويقدر على غير ما فعله كما قد بينا ذلك في غير هذا الموضع وبين ذلك في غير موضع من القرآن وقد يراد به إنه ما يمكن أحسن منه ولا أكمل منه فهذا ليس قدحا في القدرة بل قد أثبت قدرته على غير ما فعله لكن قال ما فعله أحسن وأكمل مما لم يفعله وهذا وصف له سبحانه بالكرم والجود والإحسان وهو سبحانه الأكرم فلا يتصور أكرم منه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما[١]

٥-إذا ظرف لما يستقبل من الزمان

قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ قال تعالى {وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ }الزمر٧ علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب والجزاء إنما يكون بعد الشرط وكذلك قوله {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ }الفتح٢٧ يدل على أنه يشاء

---

[١]رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: ١ ص: ١٣٨-١٤٢

ذلك فيما بعد وكذلك قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ فإذا ظرف لما يستقبل من الزمان فدل على أنه إذا أراد كونه قال له كن فيكون وكذلك قوله {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ }التوبة١٠٥ فبين فيه أنه سيرى ذلك في المستقبل إذا عملوه[1]

٦-ارادة الله سبحانه للمستقبلات هى مسبوقة بارادته للماضى

وقد حكى القولين عن اهل السنة فى الارادة والسمع والبصر ابو عبدالله الحارث بن اسد المحاسبى فى كتاب فهم القرآن فتكلم على قوله { حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ }محمد٣١ ونحوه وبين ان علم الله قديم وانما يحدث المعلوم الى ان قال وذلك موجود فينا ونحن جهال وعلمنا محدث قد نعلم ان كل انسان ميت فكلما مات انسان قلنا قد علمنا انه قد مات من غير ان نكون من قبل موته جاهلين انه سيموت الا انا قد يحدث لنا اللحظ من الرؤية وحركة القلب اذا نظرنا اليه ميتا لأنه ميت والله لا تحدث فيه الحوادث الى ان قال وكذلك قوله { لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ }الفتح٢٧ وقوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً }الإسراء١٦ وقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وليس ذلك منه ببدىء الحوادث إرادة حدثت له ولا ان يستأنف مشيئة لم تكن له وذلك فعل الجاهل بالعواقب الذى يريد الشيء وهو لا يعلم العواقب فلم يزل يريد ما يعلم أنه يكون لم يستحدث ارادة لم تكن لأن الارادات انما تحدث على قدر ما يعلم المريد واما من لم يزل يعلم ما يكون وما لا يكون من خير وشر فقد أراد ما علم على ما علم لا يحدث له بدو اذ كان لا يحدث فيه علم به قال أبوعبدالله الحارث وقد تأول بعض من يدعى السنة وبعض اهل البدع ذلك على الحوادث فأما من ادعى السنة فاراد اثبات القدر فقال ارادة الله اى حدث من تقديره سابق الارادة واما بعض اهل البدع فزعموا ان الارادة انما هى خلق حادث وليست مخلوقة ولكن بها الله كون المخلوقين قال فزعمت ان الخلق غير المخلوقين وان الخلق هو الارادة وانها ليست بصفة لله من نفسه وجل ان يكون شيء حدث بغير ارادة منه وجل عن البدوات وتقلب الارادات ثم تكلم على ان الحادث هو وقت المراد لا نفس الارادة كقولهم متى تريد ان اجيء إلى ان قال وكذلك قوله {إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ }الشعراء١٥ ليس معناه ان يحدث لنا سمعا ولا تكلف بسمع ما كان من قولهم قال وقد ذهب قوم من اهل السنة ان لله استماعا حادثا فى ذاته فذهب الى ما يعقل من الخلق أنه يحدث منهم على سمع لما كان من قول عمن سمعه للقول لأن المخلوق اذا سمع الشيء حدث له عقد فهم عما ادركته اذنه من الصوت وكذلك قوله {فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ }التوبة١٠٥ لا يستحدث بصرا ولا لحظا محدثا فى ذاته وانما يحدث الشيء فيراه مكونا كما لم يزل يعلمه قبل كونه لا يغادر شيئا ولا يخفى عليه منه خافية وكذلك قال بعضهم ان رؤية تحدث وقال قوم انما معنى {سَيَرَى }التوبة١٠٥و {إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ }الشعراء١٥ انما المسموع والمبصر لم يخف على عينى ولا على سمعى ان أدركه سمعا وبصرا لا بالحوادث فى الله قال أبو عبدالله ومن ذهب الى انه يحدث لله استماع مع حدوث المسموع وإبصار مع حدوث المبصر فقد زاد على الله ما لم يقل وانما على العباد التسليم لما

[1] مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٤٦

قال الله { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الإسراء١ ولا نزيد ما لم يقل وانما معنى ذلك كما قال تعالى { حَتَّى نَعْلَمَ }محمد٣١ حتى يكون المعلوم وكذلك حتى يكون المبصر والمسموع فلا يخفى على ان يعلمه موجودا ويسمعه موجودا كما علمه بغير حادث فى علم الله ولا بصر ولا سمع ولا معنى حدث فى ذات الله تعالى عن الحوادث فى نفسه[1]

قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ كل ما كان بعد عدمه فانما يكون بمشيئة الله وقدرته وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاء وجب كونه وهو تحت مشيئة الرب وقدرته وما لم يشأ امتنع كونه مع قدرته عليه كما قال تعالى{وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا }السجدة١٣ { وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }البقرة٢٥٣ { وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ }الأنعام١١٢ فكون الشيء واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء على انه لابد من كونه لا يمتنع ان يكون واقعا بمشيئته وقدرته وارادته وان كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه فان ارادته للمستقبلات هى مسبوقة بارادته للماضى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وهو انما أراد هذا الثانى بعد أن أراد قبله ما يقتضى ارادته فكان حصول الارادة اللاحقة بالارادة السابقة[2]

٧-ثبوت الشئ فى العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه فى الخارج

وهؤلاء القائلون بأن المعدوم شيء ثابت فى العدم سواء قالوا بأن وجودها خلق لله أو هو الله يقولون ان الماهيات والاعيان غير مجعولة ولا مخلوقة وإن وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته وقد يقولون الوجود صفة للموجود وهذا القول وان كان فيه شبه بقول القائلين بقدم العالم أو القائلين بقدم مادة العالم وهيولاه المتميزة عن صورته فليس هو اياه وان كان بينهما قدر مشترك فإن هذه الصورة المحدثة من الحيوانات والنبات والمعادن ليست قديمة باتفاق جميع العقلاء بل هى كائنة بعد ان لم تكن وكذلك الصفات والأعراض القائمة بأجسام السموات والإستحالات القائمة بالعناصر من حركات الكواكب والشمس والقمر والسحاب والمطر والرعد والبرق وغير ذلك كل هذا حادث غير قديم عند كل ذى حس سليم فإنه يرى ذلك بعينه والذين يقولون بأن عين المعدوم ثابتة فى القدم أو بأن مادته قديمة يقولون بأن أعيان جميع هذه الأشياء ثابتة فى القدم ويقولون ان مواد جميع العالم قديمة دون صوره واعلم أن المذهب إذا كان باطلا فى نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصورا حقيقيا فإن هذا لا يكون الا للحق فأما القول الباطل فإذا بين فبيانه يظهر فساده حتى يقال كيف اشتبه هذا على أحد ويتعجب من اعتقادهم اياه ولا ينبغى للإنسان أن يعجب فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل الا وقد ذهب إليه فريق من الناس ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات وأنهم صم بكم عمى وأنهم لا يفقهون وأنهم لا يعقلون وأنهم فى قول مختلف

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٨١-١٨٣

[2] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٤٥

يؤفك عنه من أفك وأنهم فى ريبهم يترددون وأنهم يعمهون وإنما نشأ والله أعلم الاشتباه على هؤلاء من حيث رأوا أن الله سبحانه يعلم ما لم يكن قبل كونه أو {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ فرأوا أن المعدوم الذى يخلقه يتميز فى علمه وارادته وقدرته فظنوا ذلك لتميز ذات له ثابتة وليس الامر كذلك وانما هو متميز فى علم الله وكتابه والواحد منا يعلم الموجود والمعدوم الممكن والمعدوم المستحيل ويعلم ما كان كآدم والأنبياء ويعلم ما يكون كالقيامة والحساب ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون كما يعلم ما أخبر به عن أهل النار { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ}الأنعام٢٨ وأنهم {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ}الأنفال٢٣ وأنه {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }الأنبياء٢٢ وأنه { لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء٤٢ {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً }التوبة٤٧ وأنه { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور٢١ ونحو ذلك من الجمل الشرطية التى يعلم فيها انتفاء الشرط أو ثبوته فهذه الأمور التى نعلمها نحن ونتصورها إما نافين لها أو مثبتين لها فى الخارج أو مترددين ليس بمجرد تصورنا لها يكون لأعيانها ثبوت فى الخارج عن علمنا وأذهاننا كما نتصور جبل ياقوت وبحر زئبق وإنسانا من ذهب وفرسا من حجر فثبوت الشئ فى العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه فى الخارج بل العالم يعلم الشيء ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته فى الخارج ثبوت ولا وجود أصلا وهذا هو تقدير الله السابق لخلقه كما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى قال ان الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أول ما خلق الله القلم فقال اكتب قال رب وما أكتب قال اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة وقال ابن عباس ان الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا ثم أنزل تصديق ذلك فى كتابه فقال {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }الحج٧٠ وهذا هو معنى الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده عن ميسرة الفجر قال قلت يا رسول الله متى كنت نبيا وفى رواية متى كتبت نبيا قال وآدم بين الروح والجسد هكذا لفظ الحديث الصحيح وأما ما يرويه هؤلاء الجهال كابن عربى فى الفصوص وغيره من جهال العامة كنت نبيا وآدم بين الماء والطين كنت نبيا وآدم لا ماء ولا طين فهذا لا أصل له ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين ولا هو فى شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ بل هو باطل فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط فإن الله خلقه من تراب وخلط التراب بالماء حتى صار طينا وأيبس الطين حتى صار صلصالا كالفخار فلم يكن له حال بين الماء والطين مركب من الماء والطين ولو قيل بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال مع أن هذه الحال لا اختصاص لها وانما قال بين الروح والجسد وقال وإن آدم لمنجدل فى طينته لأن جسد آدم بقى أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه كما قال تعالى {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً }الإنسان١ [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٤٥-١٤٧

ما تقول السادة العلماء أئمة المسلمين أئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين فى قوله تعالى {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }النحل٤٠ فإن كان المخاطب موجودا فتحصيل الحاصل محال و إن كان معدوما فكيف يتصور خطاب المعدوم ؟

الحمد لله رب العالمين فهذه المسألة فهي مبنية على أصلين أحدهما الفرق بين خطاب التكوين الذي لا يطلب به سبحانه فعلا من المخاطب بل هو الذى يكون المخاطب به و يخلفه بدون فعل من المخاطب أو قدرة أو إرادة أو و جود له و بين خطاب التكليف الذي يطلب به من المأمور فعلا أو تركا يفعله بقدرة و إرادة و إن كان ذلك جميعه بحول الله و قوته إذ لا حول و لا قوة إلا بالله و هذا الخطاب قد تنازع فيه الناس هل يصح أن يخاطب به المعدوم بشروط و جوده أم لايصح أن يحاطب به إلا بعد و جوده و لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد و جوده وكذلك تنازعوا فى الأول هل هو خطاب حقيقى أم هو عبارة عن الإقتدار و سرعة التكوين بالقدرة و الأول هو المشهور عند المنتسبين الى السنة و الأصل الثاني أن المعدوم فى حال عدمه هل هو شيء أم لا فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة و الشيعة إلى أنه شيء فى الخارج و ذات و عين و زعموا أن الماهيات غير مجعولة و لا مخلوقة وأن و جودها زائد على حقيقتها و كذلك ذهب إلى هذا طوائف من المتفلسفة و الإتحادية و غيرهم من الملاحدة والذى عليه جماهير الناس و هو قول متكلمة أهل الإثبات و المنتسبين الى السنة و الجماعة أنه فى الخارج عن الذهن قبل و جوده ليس بشيء أصلا و لا ذات و لا عين و أنه ليس فى الخارج شيئان أحدهما حقيقة و الآخر و جوده الزائد على حقيقته فإن الله أبدع الذوات التى هي الماهيات فكل ما سواه سبحانه فهو مخلوق و مجعول و مبدع و مبدوء له سبحانه و تعالى لكن فى هؤلاء من يقول المعدوم ليس بشيء أصلا وإنما سمى شيئا بإعتبار ثبوته فى العلم فكان مجازا ومنهم من يقول لاريب أن له ثبوتا فى العلم و وجودا فيه فهو بإعتبار هذا الثبوت و الوجود هو شيء و ذات و هؤلاءلا يفرقون بين الوجود و الثبوت كما فرق من قال المعدوم شيء و لا يفرقون في كون المعدوم ليس بشيء بين الممكن و الممتنع كما فرق أولئك إذ قد إتفقوا على أن الممتنع ليس بشيء و إنما النزاع فى الممكن و عمدة من جعله شيئا إنما هو لأنه ثابت فى العلم و بإعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد و الخلق و الخبر عنه و الأمر به و النهي عنه و غير ذلك قالوا و هذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض فإن خص الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العيني و بين الوجود الذي هو الثبوت العلمى زالت الشبهة فى هذا الباب وقوله تعالى {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }النحل٤٠ ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه و قبل توجيه هذا الخطاب إليه و بذلك كان مقدرا مقضيا فإن الله سبحانه و تعالى يقول و يكتب من ما يعلمه ما شاء كما قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و في صحيح البخارى عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال كان الله و لم يكن شيء معه و كان عرشه على الماء و كتب فى الذكر كل شيء ثم خلق السموات و الأرض و فى سنن أبى داود و غيره عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فقال ما أكتب قال ما هو كائن الى يوم القيامة الى أمثال ذلك من النصوص التى تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوما مخبرا عنه مكتوبا فهو شيء بإعتبار و جوده العلمي الكلامى الكتابي و ان كانت حقيقته التى هى و جوده العينى ليس ثابتا فى الخارج بل هو عدم محض و نفى

صرف و هذه المراتب الأربعة المشهورة للموجودات و قد ذكرها الله سبحانه و تعالى فى أول سورة أنزلها على نبيه فى قوله { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{٥} العلق ١-٥ و قد بسطنا الكلام من ذلك فى غير هذا الموضع وإذا كان كذلك كان الخطاب موجها إلى من توجهت إليه الإرادة و تعلقت به القدرة و خلق و كون و كما قال {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }النحل٤٠ فالذي يقال له كن هو الذي يراد و هو حين يراد قبل أن يخلق له ثبوت و تميز فى العلم و التقدير و لولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره و بهذا يحصل الجواب عن التقسيم فإن قول السائل إن كان المخاطب موجودا فتحصيل الحاصل محال يقال له هذا إذا كان موجودا فى الخارج و جوده الذي هو و جوده و لا ريب أن المعدوم ليس موجودا و لا هو فى نفسه ثابت و أما ما علم و أريد و كان شيئا فى العلم و الإرادة و التقدير فليس و جوده فى الخارج محالا بل جميع المخلوقات لا توجد إلا بعد و جودها في العلم و الإرادة وقول السائل أن كان معدوما فكيف يتصور خطاب المعدوم يقال له أما إذا قصد أن يخاط بالمعدوم فى الخطاب بخطاب يفهمه و يمتثله فهذا محال إذا من شرط المخاطب أن يتمكن من الفهم و الفعل و المعدوم لا يتصور أن يفهم و يفعل فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه بمعنى أنه يطلب منه حين عدمه أن يفهم و يفعل و كذلك أيضا يمتنع أن يخاطب المعدوم فى الخارج خطاب تكوين بمعنى أن يعتقد أنه شيء ثابت فى الخارج و أنه يخاطب بأن يكون وأما الشيء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه مثل توجيه الإرادة إليه فليس ذلك محالا بل هو أمر ممكن بل مثل ذلك يجده الإنسان فى نفسه فيقدر أمر فى نفسه يريد أن يفعله و يوجه إرادته و طلبه إلى ذلك المراد المطلوب الذي قدره فى نفسه و يكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته فإن كان قادرا على حصوله حصل مع الإرادة و الطلب الجازم و إن كان عاجزا لم يحصل و قد يقول الإنسان ليكن كذا و نحو ذلك من صيغ الطلب فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه و الله سبحانه على كل شيء قدير و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون[1]

-

إن الله سبحانه يخلق الأشياء بكلماته

الله خالق كل شيء و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و فى إستعاذة النبى صلى الله عليه و سلم أعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزها بر و لا فاجر من شر ما ذرأ و برأ و أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه و عقابه و شر عباده فكلماته التامة هى التى كون بها الأشياء كما قال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ لا يجاوزها بر و لا فاجر و لا يخرج أحد عن القدر المقدور و لا يتجاوز ما خط له فى اللوح المسطور و هذا المعنى قد دل عليه القرآن فى غير موضع كقوله {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ }الأعراف١٧٩ الآية و قوله { مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ }الأنعام١١١ {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٨٢-١٨٦

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }الحج٧٠ و قوله فى السحر { وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ }البقرة١٠٢ {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام١٢٥ و نحو ذلك[1]

فإنه على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة إما كلمات لا نهاية لها ولم تزل وإما كلمات لها ابتداء وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة بل إنما خلق بكلمة من كلمات الله كما في الكتب الإلهية القرآن والتوراة إنه يخلق الأشياء بكلماته قال تعالى {مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ }مريم٣٥ وقد أخبر الله في القرآن بخلقه للأشياء بكلماته في غير موضع بقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وفي التوراة ليكن يوم الأحد ليكن كذا ليكن كذا[2]

استدل غير واحد من العلماء على أن كلام الله غير مخلوق بهذه الآية

فمن المعلوم أن من يتكلم بقدرته ومشيئته فهو أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل يكون الكلام المعين لازما لذاته ومن المعلوم أنه من لم يزل متكلما إذا شاء فهو أكمل ممن كان لا يمكنه الكلام ثم صار يمكنه قال هؤلاء وكلام السلف والأئمة في هذا الباب متناسب يصدق بعضه بعضا وهم أطلقوا القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق لما حدثت الجهمية والمعتزلة الذين كانوا يقولون هو مخلوق خلقه مباينا له فذكروا ما يناقض هذا الكلام فقالوا كلام الله غير مخلوق وقالوا منه بدأ وإليه يعود لأن هؤلاء يقولون لم يبتدىء منه وإنما يبتدىء من المحل المخلوق الذي خلق فيه فقال السلف منه بدأ ردا على هؤلاء وقالوا لو كان مخلوقا منفصلا عنه لم يكن كلاما له بل كان كلاما للمحل الذي خلق فيه فإن الرب لا يتصف بما يخلقه في غيره ولم يقم به كما لا يتصف بما يخلقه في غيره من الألوان والطعوم والحركات والإضافة إليه إضافتان إضافة صفة وإضافة عبودية فالأول كإضافة ما لا يقوم بنفسه من العلم والكلام ونحو ذلك والثاني كإضافة ما يقوم بنفسه كالعبد والروح والبيت والناقة والأرض ونحو ذلك فإن كانت إضافة الأعيان على وجهين إضافة ملك مجرد وإضافة اختصاص لكونه يعبد فيها أو لغير ذلك كإضافة الناقة والمسجد وغير ذلك ولهذا قال السلف كلام الله من الله وليس من الله شيء مخلوق وقالوا كلامه منه وليس ببائن عنه كل ذلك ردا على هؤلاء ولم يقل أحد منهم بأن الكلام معنى واحد قائم بالذات هو معنى التوراة والإنجيل ولا قال أحد منهم إن الأصوات التي تكلم الله بها توجد كلها غير متعاقبة توجد معا في آن واحد مقترنة قديمة أزلية وأن الصوت الذي سمعه موسى قديم أزلي لم يزل ولا يزال ولا قال أحد منهم إن الله يتجدد له كونه متكلما بعد أن لم يكن ولم ينكر أحد منهم دوام فعل الله ولا أنه لم يزل متكلما إذا شاء بل قالوا إن الله يتكلم بصوت وأنه ينادي بصوت كما دلت عليه النصوص ولكن لم يقولوا إنه يتكلم بدون قدرته ومشيئته بل نطق بهذا غير واحد منهم كالإمام أحمد وغيره وسائرهم يقرون بذلك وقد احتج كثير

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٨

[2] الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٣١٤

منهم كسفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل ونعيم بن حماد والبويطي صاحب الشافعي وغيرهم على أن القرآن غير مخلوق بقوله تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ فلو كان كن مخلوقة لزم أن لا يوجد شيء من المخلوقات لأن كن تكون مخلوقة بكن أخرى وهلم جرا فلا يوجد شيء وقد يظن بعض من لم يفهم غور كلامهم وحقائق الأمور أن هذا منهم استدلال بإبطال التسلسل مطلقا وأن ذلك يناقض دوام كونه لم يزل متكلما إذا شاء وأن هذا تناقض منهم وليس الأمر كذلك بل التسلسل نوعان تسلسل في المؤثرات وهذا باطل بالاتفاق وتسلسل في الآثار المفعولات فهذا فيه نزاع فكثير من النظار يجيزه وكثير منهم لا يجيزه وكلام الأئمة مبني على قول من أجازه وفرق بين النوعين وذلك أن التسلسل في المؤثرات يقتضي أن لا يوجد شيء كما تقدم فإنه إذا لم يكن يوجد هذا حتى يوجد شيء آخر ولا يوجد الشيء الآخر حتى يوجد شيء آخر وهلم جرا فإنه يقتضي تقدير أشياء كلها حادثة بعد العدم مفتقرة إلى من يوجدها وليس فيها من يوجد شيئا بنفسه ولا موجود بنفسه ومعلوم أنه إذا لم يكن فيها موجود بنفسه لم تكن الجملة موجودة بنفسها بطريق الأولى فإن الجملة مفتقرة إلى كل واحد من الآحاد فإذا كان كل من الآحاد فقيرا ممكنا لا يوجد بنفسه فالمفتقر إليه أولى بالفقر وأولى ألا يكون موجودا بنفسه وتسلسل المفتقرات والمعدومات يقتضي كثرة المعدومات بل هذا تسلسل ممتنعات فإن ما لا يوجد حتى يوجد ما لا يوجد ممتنع وتقدير أمور كلها مفعولات ليس فيها غير مفعول مع أنه ليس لها فاعل مباين لها ممتنع ضرورة وكثرة الممتنعات المفتقرات لا تقتضي إمكان شيء منها فضلا عن وجوده والتسلسل في أصل تمام التأثير كالتسلسل في أصل التأثير والفاعل لا بد أن يكون حيا عالما قادرا مريدا فاعلا بنفسه فلا يجوز أن يقال لا يصير فاعلا لشيء حتى يجعله شيء آخر فاعلا وذلك الآخر لا يصير فاعلا حتى يجعله شيء آخر فاعلا إلى غير نهاية بل لا بد من إثبات فاعل بنفسه لم يجعله غيره فهو مثل أن يقال لا يوجد حتى يوجد ولا يجوز أن يقال لا يفعل شيئا حتى يعلم ولا يعلم حتى يعلمه غيره وذلك الغير لا يعلم حتى يعلمه غيره إلى غير نهاية بل لا بد من عالم بنفسه ولا يجوز أن يقال لا يقدر حتى يقدره غيره وذلك الغير لا يقدر حتى يقدره غيره إلى غير نهاية بل لا بد من قادر بنفسه وكذلك إذ قيل لا يكون فاعلا حتى يكون فاعلا ولا يكون عالما أصلا حتى يكون عالما ولا يكون قادرا أصلا حتى يكون قادرا فإذا قال لا يؤثر حتى يصير مؤثرا ولا يصير مؤثرا حتى يصير مؤثرا لم يصر مؤثرا بحال وأما إذا قيل لا يكون مؤثرا في هذا حتى يؤثر في شيء آخر ولا يكون مؤثرا في ذلك الشيء حتى يكون مؤثرا في شيء قبله فهذا تسلسل في الآثار والتأثيرات المتعاقبة ليس هو تسلسلا في نفس أصل كونه مؤثرا فالتأثير الثاني ليس موقوفا على كون المؤثر في نفسه مؤثرا فإنه مؤثر بنفسه بل على حدوث تأثير قبل هذا التأثير فيلزم وجود تأثيرات متعاقبة فإن كان المؤثر مؤثرا في نفسه جاز ذلك ومعنى ذلك أن الرب تعالى لا يتوقف كونه خالقا على غيره أصلا وأما كونه خالقا لهذا فقد يكون مشروطا بخلقه لغيره فالتسلسل في التأثيرات المعينة تسلسل في الآثار وأما التسلسل في أصل الخلق فهو تسلسل في أصل التأثير وذلك ممتنع بخلاف التأثيرات المتعاقبة لآثار متعاقبة وأن كل تأثير في غير ما أثر فيه الأول وهذا تسلسل في الآثار وفي التأثيرات هي آثار لغيرها ليس تسلسلا في نفس أصل التأثير فإنه مؤثر بنفسه والممتنع هو أن لا يصير الشيء مؤثرا حتى يصير مؤثرا ولا يصير خالقا حتى يصير خالقا وبهذا احتج أئمة السنة رضي الله عنهم فإن الله قد قال إنما قولنا

لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون سورة النحل ٤٠ وقال تعالى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون سورة يس[1]

قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ أئمة أهل السنة والحديث وهم من أعلم الناس بمقالة الرسول والصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن أتبع الناس لها وهؤلاء وغيرهم كسفيان بن عيينة احتجوا على أن كلام الرب غير مخلوق بأن الله لم يخلق شيئا إلا ب كن فلو كانت كن مخلوقة لزم التسلسل المانع من الخلق وهذا التسلسل فلو كانت كن مخلوقة لزم التسلسل في أصل كونه خالقا وفاعلا فهو تسلسل في أصل التأثير وهو ممتنع باتفاق العقلاء بخلاف التسلسل في الآثار المعينة فإنه إذا لم يكن خالقا إلا بقوله كن امتنع أن يكون القول مخلوقا كما إذا قيل لا يكون خالقا إلا بعلم وقدرة امتنع أن يكون العلم والقدرة مخلوقين لأنه يلزم أن يكون ذلك المخلوق يمتنع وجوده إلا بعد وجوده فإنه لا يكون خالقا إلا به فيجب كونه متقدما على كل مخلوق فلو كان مخلوقا للزم تقدمه على نفسه وهذه حجة صحيحة عقلية شرعية[2]

اللفظ ينظر فى كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والدلالات

فان الله تعالى لما أخبر بقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢ وقال {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ }الأعراف٥٤ واستدل طوائف من السلف على أن الأمر غير مخلوق بل هو كلامه وصفة من صفاته بهذه الاية وغيرها صار كثير من الناس يطرد ذلك فى لفظ الأمر حيث ورد فيجعله صفة طردا للدلالة ويجعل دلالته على غير الصفة نقضا لها وليس الأمر كذلك فبينت فى بعض رسائلى ان الامر وغيره من الصفات يطلق على الصفة تارة وعلى متعلقها أخرى فالرحمة صفة لله ويسمى ما خلق رحمة والقدرة من صفات الله تعالى ويسمى المقدور قدرة ويسمى تعلقها بالمقدور قدرة والخلق من صفات الله تعالى ويسمى خلقا والعلم من صفات الله ويسمى المعلوم أو المتعلق علما فتارة يراد الصفة وتارة يراد متعلقها وتارة يراد نفس التعلق و الأمر مصدر فالمأمور به يسمى أمرا ومن هذا الباب سمى عيسى صلى الله عليه وسلم كلمة لأنه مفعول بالكلمة وكائن بالكلمة وهذا هو الجواب عن سؤال الجهمية لما قالوا عيسى كلمة الله فهو مخلوق والقرآن اذا كان كلام الله لم يكن الا مخلوقا فان عيسى ليس هو نفس كلمة الله وانما سمى بذلك لأنه خلق بالكلمة على خلاف سنة المخلوقين فخرقت فيه العادة وقيل له كن فكان والقرآن نفس كلام الله فمن تدبر ما ورد فى باب أسماء الله تعالى وصفاته وأن دلالة ذلك فى بعض المواضع على ذات الله او بعض صفات ذاته لا يوجب ان يكون ذلك هو مدلول اللفظ حيث ورد حتى يكون ذلك طردا للمثبت ونقضا للنافى بل ينظر فى كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والدلالات فهذا أصل عظيم مهم نافع فى باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقا ونافع فى

---

[1] الصفدية ج: ٢ ص: ٦٧-٧٠ و الصفدية ج: ٢ ص: ١٢١

[2] منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ٢١٦

معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب وطرد الدليل ونقضه فهو نافع فى كل علم خبرى او انشائى وفى كل استدلال او معارضة من الكتاب والسنة وفى سائر ادلة الخلق[1]

المضاف الى الله سبحانه لا يخلو من ثلاثة أقسام

المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة سواء كانت اضافة اسم الى اسم او نسبة فعل الى اسم او خبر باسم عن اسم لا يخلو من ثلاثة أقسام أحدها اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة٢٥٥ وقوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ }الذاريات٥٨ وفى حديث الاستخارة اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وفى الحديث الاخر اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق فهذا فى الاضافة الاسمية واما بصيغة الفعل فكقوله { عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ }البقرة١٨٧ وقوله { عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ }المزمل٢٠ واما الخبر الذى هو جملة اسمية فمثل قوله { وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة٢٨٢ {وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة٢٨٤ وذلك لان الكلام الذى توصف به الذوات اما جملة او مفرد فالجملة اما اسمية كقوله { وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة٢٨٢ او فعلية كقوله { عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ }المزمل٢٠ اما المفرد فلابد فيه من اضافة الصفة لفظا او معنى كقوله { بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة٢٥٥ وقوله { هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً }فصلت١٥ او اضافة الموصوف كقوله { ذُو الْقُوَّةِ }الذاريات٥٨ و القسم الثانى اضافة المخلوقات كقوله { نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا }الشمس١٣ وقوله { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ }الحج٢٦ وقوله { رَسُولَ اللّهِ }النساء١٥٧ و {عِبَادَ اللَّهِ }الصافات٤٠ وقوله { ذُو الْعَرْشِ }غافر١٥ وقوله { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ }البقرة٢٥٥ فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق كما ان القسم الاول لم يختلف اهل السنة والجماعة فى انه قديم وغير مخلوق وقد خالفهم بعض اهل الكلام فى ثبوت الصفات لا فى أحكامها وخالفهم بعضهم فى قدم العلم واثبت بعضهم حدوثه وليس الغرض هنا تفصيل ذلك الثالث ما فيه معنى الصفة والفعل مثل قوله { وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً }النساء١٦٤ وقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس٨٢[2]

" كلمة رضيها الله لنفسه "

قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{٨٢} فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٨٣} يس٨٢-٨٣ والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التى يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده قال إبن أبي حاتم حدثنا أبى ثنا إبن نفيل الحرانى ثنا النضر إبن عربي قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٧-١٩

[2] مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤

إسم يعظم الله به و يحاشي به من السوء و قال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا حفص بن غياث عن حجاج عن إبن أبي مليكة عن إبن عباس قال سبحان قال تنزيه الله نفسه من السوء و عن الضحاك عن إبن عباس فى قوله {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً } الإسراء١ قال عجب و عن أبى الأشهب عن الحسن قال سبحان إسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه و قد جاء عن غير و احد من السلف مثل قول إبن عباس أنه تنزيه نفسه من السوء و روي فى ذلك حديث مرسل و هو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة و نفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال و فيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران إسم يعظم الله به و يحاشى به من السوء و روى عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عثمان بن عبدالله بن موهب عن موسى بن طلحة قال سئل النبى صلى الله عليه و سلم عن التسبيح فقال إنزاهه عن السوء و قال حدثنا الضحاك إبن مخلد عن شبيب عن عكرمة عن إبن عباس سبحان الله قال تنزيهه حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم قال جاء رجل إلى إبن عباس فقال لا إله إلا الله نعرفها أنه لا إله غيره و الحمد لله نعرفها أن النعم كلها منه و هو المحمود عليها و الله أكبر نعرفها أنه لا شيء أكبر منه فما سبحان الله فقال إبن عباس و ما ينكر منها هي كلمة رضيها الله لنفسه و أمر بها ملائكته و فزع إليها الأخيار من خلقه[1]

قال تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{٨٢} فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٨٣} يس٨٢-٨٣ مدبرا مصرفا تحت مشيئة الرب من غير امتناع منه بوجه من الوجوه وهذا شامل للجمادات والحيوانات وكل شيء[2]

لطائف لغوية

١-قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{٨٠} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{٨١}يس ٧٧-٨١

أن اكثر استفهامات القرآن أو كثيرا منها انما هي استفهام انكار معناه الذم و النهي إن كان انكارا شرعيا أو معناه النفي و السلب ان كان انكار وجود ووقوع كما فى قوله {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ }يس٧٨ { ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٢٦

[2] رسالة في قنوت الأشياء ج: ١ ص: ٢٥

أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ } الروم٢٨ الآية و كذلك قوله { آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } النمل٥٩ [١]

٢ ـقال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٧٧} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{٧٨} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{٧٩} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{٨٠} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{٨١}يس ٧٧ـ٨١

عليم منزه عن الجهل[٢]

٣ ـقال تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس ٨١ قدير منزه عن العجز والضعف[٣]

٤ ـقال تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس ٨١ عليم منزه عن الجهل[٤]

---

[١] مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٦٧

[٢] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٣] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

[٤] الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }

الحمدلله رب العالمين

###